226

Ahmed Mady

أوراق الليل

عبد الوهاب مطاوع



الدار المصرية اللبنانية

Friday
18/5/2012

أوراق الليل

علمتنا الأحزان نظم القصيد

فأهدينا للناس فى أنغام الشعور

ماتلقيناه لحن من ضربات الألم !

هذه فلسفة " أوراق الليل " وهى تخطو فى السياق الإنسانى الخالد نفسه ، الذى سارت فيه كل مؤلفات الأستاذ عبد الوهاب مطاوع .. تلك الفلسفة التى أصبحت عبقًا خاصًا به ، وأضحت جسرًا متينًا يصله بقرائه ، حتى بعد رحيله ، يتبادل فيه العطاء معهم ، دون أن يشغل بال أحد الطرفين من هو صاحب النصيب الأكبر من هذا العطاء الخالد.



* عبد الوهاب مطاوع 1940-2004
* شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
* حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.
* كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982 ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.
* صدر له 52 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.
* صدرت له ثلاث مجموعات قصصية هى: (أماكن فى القلب) (ولاتنسنى) ، (والحب فوق البلاط).



الدار المصرية اللبنانية

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

فذلكة شعرية

(بالفصحى والعامية)

شعر

ياسر قطامش



الدار المصرية اللبنانية

كتابنا القادم

عبد الوهاب مطاوع

أوراق الليـــل

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم
الملائكة ألاَّ تخافوا ولا تحـزنوا وأبشروا بالجنة التى
كنتم توعدون »

صدق الله العظيم
(الآية 30 من سورة فُصلت)

المحتويات

علمتنا الأحزان نظم القصيد

فأهدينا للناس فى أنغام الشعور

ما تلقيناه نحن من ضربات الألم!

كتب الشاعر الإنجليزى شيلى هذه الأبيات المعبرة منذ عشرات السنين، ولكننى كثيراً ما أسترجعها فى باطنى، وأنا أقرأ رسائل المهمومين لى، وألمس فى كثير منها عن قرب كيف علّمت الأحزان بعض من لا صلة لهم بعالم الكتابة.. و«نظم القصيد» التعبير الصادق المؤثر عن أشجانهم وآلامهم.

وفى هذا الكتاب الجديد - من مجموعة كتبى التى تضم نماذج مختارة من بريد الجمعة والقصص الإنسانية الواقعية - بعض «عذاب البشر» وبعض معاناتهم مع طيورهم الشاردة بعيداً عن سمائهم.. طيور السعادة. والأمان.. والكرامة الإنسانية التى يتلهفون عليها بحنين الإنسان القديم للتطلع إلى ما ينقصه.. لقد اخترت لكتابى هذا عنوانًا هو «أوراق الليل» لأنه يضم آهات وأنّات عدد من البشر، سجلوها على الأوراق فى ليل المهموم الطويل والمؤرق.

ولقد حاولت جهدى المحدود، أن أشير على أصحاب هذه الهموم بما رأيت فيه صلاح أمرهم.. وحاولت قدر طاقتى تخفيف بعض دموعهم.. فعسى أن أكون قد وفقت فى شىء من

ذلك، وعسى أن يكون «دواء الأيام» قد شفى بعض ما لا شفاء له سوى الزمن . . من جراح الحياة.

د. الوهاب مطاوع

«العـدل الحقيـقى هو أن نرفض الظلم لأنفـسنا، وألاَّ نظلم فى الوقت نـفسـه أحـدًا.. هذا العـدل الذى يأمـرنـا به الله مع أنفـسنـا، ومع الآخـرين كفيل بحل كل المشكلات».

كثيرًا مـا قرأت رسائل بريد الجمـعة وتعاطفت مع أصـحابها المهمـومين، ولم أكن أدرى أنه سيـجىء اليوم، الذى أصبح فيه واحدة منهم، وأكتب إليك بهمِّى وشجونى كما يفعلون.

فأنا يا سيدى محاسبة فى السادسة والثلاثين من عـمرى، على قـدر من الجـمـال، تزوجت منذ 12 عـامًا من مـحاسب يكبـرنى بخمس سنوات، تعرفت إليه لدى بعض الأقـارب، وتفاهمنا منذ اللقـاء الأول وتزوجنا خـلال أربعـة شـهـور، بعـد أن ربط الحب والألفة سريعًا بيننا، وأنجبنا طفلنا الأول، وبعـد مجيئه توفى أبى الحبيب - رحـمه الله - وتأثرت تأثرًا شـديدًا برحـيله ولم يخفف عنى أحزانى سوى زوجى الذى أحببته، واعتبرته بعده كل شىء فى حيـاتى، وبعد عام آخر أنجبنا طفلنا الثانى، ثم عـمل زوجى بإحدى الشـركـات الاسـتثـمـارية، وازداد دخله وراح يُغْدق على أسرته الصغيرة، ويحاول أن يجعل بيتنا واحة جميلة وأنيقة معطرة بعطر الحب والتفاهم، فلم أتردد طويلاً فى أن أستقيل من عملى، وأتفرغ لرعاية بيتى وأطفالى ، وتنظيم حياة زوجى والاهتمام بكل شئونه، فلقد سلمت إليه قلبى ولم يعد يسعدنى شىء فى الوجود

سوى قربى منه ووجودى إلى جواره، فحتى بعض الأزمات المالية الطارئة لم تكن تنغص علىّ حياتى، وكنت أقول له دائمًا إن المال يذهب ويجىء، أما الحب والسعادة وصفاء المشاعر فلا تقدر بمال، ومضت حياتنا جميلة، فأنا بطبعى هادئة ومسالمة ولا أحب المشكلات ولا جو الخلافات، وأؤمن دائمًا بأن الزوجة لا تسعد إلاَّ بسعادة زوجها وأبنائها معها، كما أن زوجى عطوف ورقيق ومتفاهم، وكان ينتهز أوقات فراغه القليلة ليضىء حياتنا بوجوده معنا.

ومنذ عام بلغ زوجى سن الأربعين فبدأ - على غير عادته - يكثر من الخروج حتى فى الفترات التى لا يكون مرتبطًا فيها بعمل، كما بدأ يتأخر كثيرًا فى العودة إلى البيت فى المساء، واستمرت هذه الحال ثلاثة شهور، إلى أنْ عاد ذات مساء متأخرًا فداعبته بالسؤال عما إذا كان قد عرف امرأة غيرى، فإذا به لدهشتى وصدمتى الشديدة فيه يجيبنى بالاعتراف بأن ذلك قد حدث فعلاً، لكنه فى سبيله إلى قطع علاقته بها حفاظًا على بيتنا! وبرغم صدمتى. . فقد ذهلت لفترة ثم تمالكت نفسى، وأقسمت له صادقة أنه لو قطع علاقته بها فورًا فسوف أسامحه فعلاً، عن هذه النزوة وسأعتبرها نزوة سن الأربعين وسأنساها نهائيًا، ولن أشير إليها مرة أخرى فى حياتنا وسنعود لمواصلتها كما كانت بالحب والتفاهم، فأكد لى زوجى أنه سيفعل ذلك فورًا ولن يكون هذا الأمر مجالاً للخلاف بيننا مرة أخرى.

وسامحته بالفعل يا سيدى، ولم تتغير مشاعرى تجاهه، لكنه استمر فى كثرة الخروج والتأخر، فساورتنى الشكوك فى أنه لم يقطع هذه

العلاقة العابرة، التى وعدنى بقطعها وصارحته بذلك أكثر من مرة، فكان يؤكد لى أن الأمر قد انتهى تمامًا، ولا داعى لإفساد حياتنا بالشك فيه وأنست الصدق فى حديثه، وأنا دائمًا أصدِّق زوجى وأصدق الآخرين أيضًا، ولا أفترض فى أحد الكذب، فاطمأنت خواطرى تجاهه وواصلنا حياتنا فى سلام وأحطته بالحب والتفاهم، الذى لا أتصور الحياة الزوجية بدونهما، لكن سيدة لا أعرفها اتصلت بى بعد شهور وأبلغتنى - بلا مقدمات - بأن هناك فتاة تتردد كثيرًا على مكتب زوجى فى الفترات المسائية، وتنتظره حتى ينتهى من عمله ويغادر معها العمل، وانتظرت عودة زوجى فى تلك الليلة وأبلغته بما سمعت وسألته عن صحته، فأكَّد لى أنها شائعة ظالمة ولا أساس لها من الصحة، وصدقته مرة أخرى ولمست الصدق فى حديثه، ولم أسمح للشكوك بأن تفسد علينا حياتنا، ثم بعد ثلاثة شهور أخرى فوجئت بسيدة أخرى لا أعرفها، تتصل بى وتبلغنى هذه المرة خبرًا عجيبًا، هو أن زوجى قد تزوج من فتاة، وأن زوجته حامل وإذا أردت أن أتأكد من صدق هذا الكلام، فلأذهب فورًا إلى العنوان التالى وأتحقق بنفسى من وجوده مع زوجته فى شقة والدتها!.

وفكرت فى البداية فى ألاَّ أذهب، وأن أعتبر هذا الاتصال محاولة أخرى مجهولة المصدر لإفساد سعادتنا.. لكننى بعد قليل وجدت نفسى مدفوعة برغبة طاغية فى الذهاب إلى العنوان، الذى أبلغتنى به هذه السيدة، والتحقق مما سمعت. وارتديت ملابسى وتوجهت للعنوان الذى تبين لى للأسف أنه قريب جدًا من مسكننا، وشاهدت سيارة زوجى تحت

البيت، وصعدت إلى الشقة التى أبلغتنى بعنوانها السيدة المجهولة، وطرقت الباب ففتحته لى سيدة شابة تبدو حاملاً فى حدود الشهر الرابع تقريبًا، وتطلعت إلىّ فى هدوء وترقب وبغير دهشة، فسألتها بصوت مرتجف عن زوجى فإذا بها تجيبنى ببساطة بأنه موجود فى «الداخل». . ثم استدارت ونادت على زوجى، فإذا به يخرج إلىّ من غرفة النوم، وحين رآنى عقدت الدهشة لسانه فلم ينطق بحرف، أما أنا فلم أتمالك نفسى حين رأيته خارجًا من غرفة النوم وخلعت دبلة الزواج، وأنا أرتجف من الانفعال. . وألقيت بها على المائدة الموجودة فى الصالة وطلبت منه أن يطلقنى فورًا. . وارتبك زوجى بشدة وحاول تهدئتى، وأصرّ على أن نخرج معًا لنتكلم فى أمرنا فى مكان آخر، وسحبنى من يدى إلى خارج الشقة وهو يعتذر لى عما فعل، ويعترف لى بأنه لم يكن لديه أى مبرر لأن يفعل ما فعل، فلا هو يشكو من نقص شىء فى حياته. ولا أنا يعيبنى شىء كما قال لى، بل إنه يحبنى وسوف يظل يحبنى، وليس له من مبرر لما فعل سوى أن «ظروف» هذه الفتاة كانت صعبة، وأنه قد وعدها بالزواج بعد أن تعاطف مع ظروفها وتزوجها، بعد ثلاثة شهور فقط من تعرفه إليها، لكنه سوف يطلقها على الفور ونعود لحياتنا كما كنا من قبل وكأنه لم يحدث أى شىء.

ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً من جانبه لإقناعى بالسكوت على ما جرى ولاحتوائى، فأنا كما قلت منذ البداية سيدة مسالمة ولا أحب الفضائح والمشكلات، وقد كتمت الأمر كله بالفعل عن أقرب الناس إلىّ، وفى اليوم التالى طلق زوجى هذه الفتاة. . وتم إبلاغها بذلك فإذا

بها تأتى إليه فى بيتى، وتهدده بأنها سوف تجعله يبيع كل ما يملك عقابًا له على ما فعل معها، وسدادًا لإيصالات كتبها على نفسه بمبلغ كبير، تعويضًا لها عن الجهاز، لأنه قد تزوجها فى بيت أمها، ولم تكتف بذلك وإنما صرخت فى وجهى واتهمتنى أنا أيضًا بأننى ظالمة ولا أعرف ربى، لأننى قد دفعته إلى طلاقها وهى حامل، إذ ما ذنب هذا الطفل الذى سيجىء إلى الدنيا بعد شهور فلا يجد له أبًا.. ولم أرد على انفعالاتها بشىء مراعاة لظروفها، بل طلبت من زوجى أن يوصلها بسيارته إلى بيت والدتها، وعدنا إلى حياتنا ومرت أسابيع على هذا التطور الخطير فى حياتنا.. فبدأت صحتى تتدهور بشكل ملحوظ وزادت نوبات البكاء اليومى فى حياتى، حتى شحب لون وجهى وفقدت الكثير من وزنى، والذى يحدث الآن فى حياتنا هو أنه منذ وقع الانفجار فى حياتنا وأنا وزوجى نعيش فى جو ثقيل يخيم على علاقتنا وبيتنا، ولم أعتده فى حياتنا الزوجية، ولا أطيق الحياة فى ظله.. والسبب فى ذلك هو مشاحناتنا اليومية أنا وزوجى حول هذا «الطفل»، الذى سيجىء بعد شهرين ثمرة لخطئه وخيانته لعهدى، فقد طلبت منه - وبإصرار لم أعرفه فى حياتى من قبل - ألاَّ تقوم بينه وبين هذا الطفل بعد مجيئه أية صلة، ومن أى نوع ومنذ اليوم الأول لولادته كشرط أساسى لاستمرار حياتنا معًا، لأنه ليس عدلاً أن أدفع أنا ثمن غلطته وغلطة تلك الفتاة التى تزوجت زوجًا لأخرى وأبًا، وأتقبل وجود هذا الطفل فى حياته بما يحمله ذلك من دلالات ومشكلات، ورغم أنه قد بدأ يتهمنى - هو الآخر كما فعلت تلك الفتاة - بأننى ظالمة ولا أعرف ربى لأننى أريد أن أحرمه من

طفله هذا ، فإنه وعدنى فى النهاية بأنه لن يرى هذا الطفل، وسيكتفى بأن يرسل إليه مبلغًا عادلاً كل شهر، ولم يعدنى زوجى بذلك إلاَّ بعد أن صارحته بلا مواربة بأننى أكره هذه الفتاة، وهذا الطفل الذى تحمله كراهية لا حيلة لى معها، لأنهما سيتسببان فى تدمير حياتنا للأبد، ومع أن زوجى قد وعدنى بما أردت إلاَّ أننى لا أكف عن التفكير والبكاء لحظة كلَّما تذكرت أن زوجى الذى أحببته وسلمته قلبى ومشاعرى، وحياتى، قد خدعنى وكذب علىّ، واستمر فى علاقته بهذه الفتاة، التى أكاد أجزم بأنها هى التى اتصلت بى وأبلغتنى بالعنوان لتعلن علاقتها بزوجى إلى أن اكتشفت أنا خداعه وطالبته بطلاقى.

وما يحيِّرنى هو أنه يؤكِّد لى أنه لم يكف عن حبى حتى وهو معها، وأننى برغم حبى له الذى لا حيلة لى فيه أيضًا، أشعر أحيانًا بكراهية شديدة نحوه.

أما «الكارثة» التى أخشاها، فهى أننى لا أتصورَّ حياتى معه بعد مجئ هذا الطفل خلال أسابيع، ومع وجود ثمرة الخداع والخيانة فى الدنيا. . وأنظر إلى أطفالى وأتساءل ما ذنبهم فى أن يتهدم هذا البيت فوق رءوسهم؟ وأنظر إلى نفسى وأسأل: وما ذنبى فى أن أواجه هذه المحنة وأنا التى لم تقدم لزوجها سوى الحب والإخلاص والحياة الهادئة السعيدة؟

لقد نصحنى أبواه اللذان صارحناهما أخيراً بالأمر - قبل أن تذهب إليهما الأخرى حاملة «صغيرها» على ذراعيها - بأن أحافظ على

زوجـى وبيتــى وأولادى، وأن أغفـر لزوجـى ما حـدث. وزوجـى - برغم افتقادى الآن للأمان والحب معه - يحاول إسعادى وتعويضى بكل السبل، لكننى شبه متأكِّدة من أن الحياة بيننا ستصبح مستحيلة بعد مـجىء هذا الطفل للدنيـا، إذ لـن أطيق أن أرى زوجى فى البيت، لأنه سيذكرنى كل لحظة بطيبتى معه وسذاجتى المفرطة، وثقتى الزائدة على الحد به، والتى أدت إلى استمراره فى هذا الزواج، وهو واثق أننى حتى لو عرفت فسوف أغضب منه قليلاً، ثم أصفح عنه كعادتى معه، وكأن شيئًا لم يكن.. وإحساسى بأنه قد استغل ثقتى فيه وطيبتى معه على هذا النحو، يشعرنى أحيانًا بأننى قد حملت كل هذا الحب لمن لا يستحق! إنه يزعم لى الآن أننى لا أحبه بالقدر الكافى، وأنــه قــد صــدم بمطالبتـى له بالطلاق، حين اكتشفت زواجه لأنه كان يعتقد أن حبنا لــن يهزمــه شـىء، حتى ولو كان زواجه سراً من أخرى وإنجابه منها! وقد أصبحت الآن أواجه ثلاثة اختيارات لا رابع لها هى:

إمَّا أن أقبل بحياتى معه كما هى الآن، وأحاول أن أنســى ما فعله ولا أظننى سوف أستطيع ذلك.

وإمـا أن أنفصل عنه بالطلاق، وفى هذه الحـالة ستمضى الحيـاة فى البيت بصورة عادية، ولن أتأثر ماديًا لأنه سيتكفل بى وبأطفالى من هذه الناحية، ويبقى معى الأبناء وينتقل هو للحياة فى بيت والديه.

وإمـا أن ننفصل داخل البيت بغير طلاق، وقد جربنا هذه المحـاولة فكانت غير مجدية للطرفين، لأننا قد تعودنا على حياة مليئة بالحب

والتفاهم حول كل شيء، ولست أريد أن أضايق زوجي أو أشقيه، وما أزال حتى الآن لا أتعامل معه إلاَّ باحترام برغم الجو الثقيل الذى يخيم على البيت، ويخيل إليَّ فى أحيان كثيرة أنه من الأفضل لكلينا أن ننفصل، ولا يزال كل منا يعامل الآخر برفق وحب من دون أن ننفصل، وكلانا يكره الآخر؛ وقد بقى الآن شهران على مجئ الطفل الذى ستضطرب له حياتي، ويحدد مصير علاقتي بزوجي، صحيح أن الله سبحانه وتعالى قد أحلَّ الزواج بأكثر من واحدة، لكنه صحيح أيضًا أنه قد حرم الكذب والخداع، فبماذا تنصحنى أن أفعل مع رجائى لك بألاَّ تنصحنى بأن أقبل وجود هذا الطفل فى حياة زوجي، أو بأن أسمح لأبنائي بمعرفته، ففوق جثتي سواء بقيت مع زوجي أم انفصلت عنه أن تنشأ بين هذا الطفل وأولادى أية صلة ذات يوم، أما زوجي فإن علاقتنا ستظل مرهونة بوفائه بوعده لى، بألاَّ يرى هذا الطفل وألاَّ تقوم بينهما أية صلة، وله أن يختار ما يشاء بعد ذلك، فبماذا تنصحنى أن أفعل؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

لست مندهشًا إلى حد كبير لهذا الموقف المتصلب الذى تتخذينه من هذا «المولود»، الذى لم يولد بعد، ولا يزال جنينًا فى علم الغيب، ليس لأننى أتفق معك فى موقفك منه، وإنما فقط لأننى أفهمه وأتفهم دواعيه، فأنت - بالرغم من أنك سيدة طيبة حقًا وحسنة النية ومسالمة - فإن تسامحك مع الحياة ومع الآخرين، قد ضاق عن هذا المولود المنتظر، ليس كراهية لا حيلة لك فيها كما تتصورين، وإنما تخوُّفًا مما سوف يمثله من احتمالات غير مستبعدة لتجديد الصلة والاتصال بين زوجك وأمه فى المستقبل، مادامت بقيت دون زواج آخر، فالأبناء رباط أبدى لا ينفصم بين الأبوين، حتى وإن انفصمت علاقتهما، وأنت تتخوفين.. ولك الحق فى ذلك، من أن يصبح هذا الطفل المنتظر حلقة اتصال لا مفر منها، بين زوجك وأمه، قد تؤدى إلى تجديد العلاقة الزوجية بينهما فى أية مرحلة من العمر، لهذا فأنت تتشددين فى رفضك أن يرى طفله منذ يوم ولادته، كأنما قد أنجبه غيره، وترهنين علاقتك به واستقرار أسرتك وأبنائك بمدى التزامه بهذا التحريم المطلق. ولاشك أن الموقف العصيب الذى وجدت نفسك فيه أخيراً هو سبب هذا التصلب، وهذه المغالاة فى التخوف من يوم ولادته، وتصورك أن حياتك مع زوجك سوف تضطرب اضطرابًا شديدًا بمولده، إلى الحد الذى سيفسد عليك حياتكما وعلاقتكما الزوجية إلى الأبد. ولا شك أنك تغالين كثيراً فى هذه

المخاوف، ولاشك أيضًا أنك محقة فى كراهيتك لهذه الفتاة، التى قبلت وربما سعت إلى أن يتزوجها زوجك، وهى تعلم بأنه أب وزوج لزوجة لا ينكر عليها شيئًا، بل ويعترف بأنه يحبها ولم يكف عن حبها حتى وهو يخون عهده معها ويرتبط بغيرها، فإذا كنت تكرهينها فلأنها قد اعتدت على حقك الطبيعى فى الاستئثار بمن تحبين لنفسك ولأطفالك، وهو مبرر مقبول ومفهوم، ولكن أى مبرر تستطيعين يا سيدتى أن تبررى به «كراهيتك» لهذا الوليد المنتظر، وهو ضحية مثلك لخطأ وعدوان أمه على حقوق الآخرين؟

إنك ترين أنه ليس عدلاً أن تقبلى بوجوده فى حياة زوجك، حتى لا تدفعى بذلك ثمن خطئه ونزوته غير المفهومة وأنت لم تجنى ذنبًا، لكن العدل نفسه الذى تريدينه لنفسك، هو أيضًا الذى ينكر عليك وعلى كل أطراف القصة أن يدفع هذا الطفل البرىء ثمنًا أفدح، وهو أيضًا لم يجن شيئًا، ولا ذنب له فى ضعف أبيه البشرى ولا فى عدوان أمه على حقوق الآخرين.

والعدل الحقيقى يا سيدتى هو أن نرفض الظلم لأنفسنا، ولا نظلم فى الوقت نفسه أحدًا، لهذا فلست أتصور أن تسمح لك طبيعتك الطيبة، بأن تتحملى وزر حرمان هذا الوليد من حقه المشروع، على أبيه فى أن يراه ويعرفه ويرعاه نفسيًا ومعنويًا، بغير أن يتعارض ذلك مع وفائه لك وحرصه عليك وعلى أسرته، وما أكثر من يرعون أطفالهم من زواج سابق دون أن يتعارض ذلك مع حرصهم وإخلاصهم لزيجاتهم الجديدة، وديننا الحنيف ينص على ألاَّ تزر وازرة وزر أخرى، وألاَّ نحرم الأبرياء

من حقوقهم العادلة احتجاجًا على أخطاء لم يرتكبوها، ويقينى هو أن طبيعتك لو سمحت لك فى البداية بفرض هذا الحرمان الظالم على هذا الوليد البرىء، تأثرًا بظروفك الحالية وتخوفًا من احتمالات تجدد زواج زوجك بأمه، ولا تزال ذكرى الخيانة ماثلة فى ذهنك، فلن تسمح لك مثالياتك وقيمك الدينية فى المستقبل القريب، بأن تتحملى هذا الوزر إلى ما لا نهاية، وربما يكون زواج أم هذا الطفل من رجل آخر، هو أنسب الظروف التى تشجعك على إسقاط صك هذا الحرمان عنه، كما قد يكون أيضًا استيعاب زوجك لدرس تجربته التى تذكرنى بمطلع قصيدة من الشعر الأمريكى التى تقول: متعة «الحب» تدوم لحظة - شجن الحب يبقى إلى نهاية العمر.

هذا الاستيعاب خير معين له، على أن يحفظ عهدك ويتخلص من أى ضعف بشرى يهدد حياتكما بالاضطراب فى المستقبل، ويكفيه ما خلَّفته هذه النزوة العابرة من «شجن» فى حياته، سيبقى إلى نهاية العمر متمثلاً فى هذا الطفل البرىء، الذى ستحكم عليه الأقدار غالبًا بأن ينشأ بين أبوين أحدهما ليس الأب الحقيقى له، فأى «شجن» جدير بالأسى وبأن يتعلم الإنسان درس التجربة، ويتجنب الخطأ نفسه أشد من هذا الشجن؟

أما العلاقة التى تجزمين بأنك لن تسمحى بها بين أبنائك وهذا الطفل، إلاَّ «فوق جثتك»، فدعى أمرها للمستقبل الذى لا يزال فى علم الغيب، ولا تزيدى من أسباب معاناتك الحالية بها بلا طائل، ففى المستقبل لن يكون القرار بشأن هذه العلاقة من شأنك وحدك، وإنما سيكون أيضًا من شأن أبنائك حين يشبون عن الطوق، ولهذا الطفل نفسه أيضًا حين

يعى حقوقه الإنسانية ويطالب بها، وسيكون كذلك لمن جاء به وبأطفالك إلى الحياة، فلا تتعجلى المشكلات ودعيها للزمن يتكفل بها وبتخفيف آثارها.

ولن تكون نهاية الدنيا - على أية حال - أن يدرك أطفالك بعد سنوات أن لهم أخًا من زواج سابق لأبيهم، فإنكار الحقيقة لا يغير منها شيئًا، والضعفاء وحدهم هم الذين لا يقوون على مواجهة الواقع بكل حقائقه سواء رضوا عنه أم لم يرضوا.

أما البدائل الثلاثة المطروحة عليك الآن، فلن أناقشها طويلاً معك، ولن أذكرك بأن زوجك برغم أنه قد أخطأ فى حقك، وفى حق الوفاء والحب، وكل الأشياء الجميلة التى ربطت بينكما. فإنه فى النهاية لم يرتكب إثمًا أو حرامًا سوى إثم الكذب والخداع، وما كان أحراه بأن يعفى نفسه منهما ومن هذه التجربة العبثية كلها، كما لن أذكرك أيضًا بأنه حين خُيِّر بين الاستمرار فى الخطأ والرجوع عنه، فإنه قد رجع عنه واختارك أنت وأطفالك، مفضلاً إيَّاك على الطرف الآخر.

ولم يدخر وسعًا لإرضائك والتكفير عن خطئه فى حق الوفاء وحقك، كما لن أذكرك أيضًا بالحكمة القديمة التى تحكى عن رجل كان دائم السخط، لأنه لا يملك حذاء ولا يستطيع شراءه، حتى رأى رجلاً بلا قدمين أصلاً فرضى عن حفائه لأول مرة فى حياته، وسار بقدميه على الأرض سعيدًا.

وإنما سأقول لك فقط ما نقله لنا الرواة من بعض أقوال بوذا: من «أن الحياة مليئة بالمعاناة، لهذا فلابد أن يعيد الإنسان النظر فى أفعاله ويحكم عليها بقدر ما يترتب عليها من معاناة للآخرين».

وليس هناك من هم أحق من أن يتحمل الإنسان بعض ما لا يرضيه فى حياته، لكى يجنبهم العناء من أبنائه الصغار.

فاختارى لنفسك ما ترين من كل البدائل المطروحة عليك، على ضوء هذا المعيار الإنسانى النبيل، الكفيل - إذا راعيناه فى حياتنا - بأن يقلل كثيراً من حجم شقاء الإنسان وآلامه، ولو طرحت الأمر على نفسك بهذا الشكل، لما اخترت إلاَّ أقل الخيارات ضرراً بأبنائك الأعزاء، حتى ولو آلمك شخصيًا وعاطفيًا بعض الوقت، ولما هدتك طبيعتك المسالمة المتسامحة إلاَّ إلى أن تصفحى عن خطأ زوجك، وتروِّضى نفسك على النسيان، وتنتصرى فى داخلك للحب القديم على العثرات والأخطاء، ولما هدتك هذه الطبيعة نفسها إلاَّ إلى أن تقبلى لهذا المولود المنتظر بما كنت ستطالبين به وبشدة لأبنائك، إذا وجدوا أنفسهم فى هذه الظروف المؤلمة نفسها.

فالعدل الذى يأمرنا به الله مع أنفسنا ومع الآخرين، كفيل بحل كل المشكلات، وجدير بأن نقبل به لأعزائنا وللجميع على السواء فلا نظلم أحدًا، ولا نرضى بأن يظلمنا الآخرون.. وشكراً.

« الإنسان يختار حياته بإرادته واختياره، وليس بعقول الآخرين ولا تمنياتهم ».

لا أريد الخوض فى تفاصيل كثيرة عن شخصى وحياتى، وإنما أريد أن أروى لك قصتى باختصار، وأطلب منك عونك ومشورتك فيها، فأنا طبيب فى الخمسين من عمرى، فى مرحلة منتصف العمر التى يكون الإنسان فيها قد انتهى، أو كاد من مرحلة الكفاح وبناء حياته، وبدأ يستمتع بثمرة شقائه طوال السنين مع زوجته وأولاده. وحين كنت فى الثلاثين من عمرى تزوجت من فتاة تصغرنى بثمانى سنوات، وجدت فيها كل ما حلمت به فى شريكة حياتى، وكانت حين تزوجتها لم تنه بعد دراستها الثانوية، فتزوجنا وسعدنا بحياتنا معًا، والتحقت بإحدى كليات القمة وتخرجت فيها، وجاء الأبناء واحدًا بعد الآخر، فاكتملت سعادتنا بهم وعشنا حياة هادئة، يسودها التفاهم، واستمتعنا فيها بكل الحب والإخلاص من الطرفين، نحو عشرين عامًا، وساعدنا على ذلك أن كلينا متدين ويرعى حقوق ربه فى جميع تصرفاته، كما حرصت من جانبى خلال رحلة السنين على ألاَّ أرفض لزوجتى طلبًا، وعلى أن ألبى لها رغباتها. وأن أعاملها بالحسنى والاحترام.

ثم فجأة تغيرت أحوال زوجتى منذ عامين فقط، خصوصًا بعد أن كبر الأبناء الثلاثة وقل اعتمادهم عليها، فبدأت تكثر الخروج

من البيت، وتلح عليَّ في مرافقتها إلى جميع الحفلات والمناسبات الاجتماعية والعائلية، واجتماعات الأصدقاء، برغم علمها بطبيعة عملى واضطرارى للصحو مبكرًا للذهاب إليه.

ونتيجة لإلحاحها بدأت استجيب لها، وأوافق على الخروج معها أحيانًا، وأرفض فى أحيان أخرى بسبب إجهادى فى العمل من ناحية، وبسبب اعتراضى على بعض الأصدقاء الذين يحضرون هذه المناسبات من ناحية أخرى، فراحت ترجونى السماح لها بالذهاب إلى هذه المناسبات بمفردها، بحجة الملل من البيت وحاجتها إلى الترويح عن نفسها، ووافقت على ذلك على مضض، مشترطًا عليها ألاَّ تتأخر فى العودة للبيت عن الحادية عشرة مساءً، كموعد نهائى، فكانت تخرج وتلتزم بهذا الموعد أحيانًا. . وتتأخر عنه فى معظم الأحيان، وبدأت بيننا بعض الخلافات بسبب الخروج وعدم الخروج، لكنها كانت تنتهى دائمًا بعد قليل بالصلح والود والاحترام المتبادل.

ومنذ شهرين طلبت منِّى زوجتى أيضًا السماح لها بالعمل، بحجة الفراغ وانشغال الأبناء بدراستهم الثانوية، وعدم حاجتهم إلى أمهم طوال الوقت، كما كانت الحال فى مرحلة الطفولة. إلخ، وترددت قليلاً فى الموافقة على نزولها إلى العمل، ثم وافقت بعد قليل، أملاً فى أن يشغلها العمل عن الرغبة المستمرة فى الخروج من البيت، وأن تشغل فراغها بشيء مفيد، فتعود كسابق عهدها فى سنوات الزواج الأولى: زوجة ملتزمة تحافظ على زوجها وأولادها، وترعى حقوقهم التى لم تفرِّط فى واجباتها تجاههم قط قبل هذه الفترة.

وخرجت زوجتى للعمل، وبعد فترة قصيرة عدت إلى بيتى بعد يوم شاق وطويل فى عملى فلم أجدها فى البيت، وبعد فترة مرت علىَّ كدهر رجعت زوجتى متأخِّرة، فقلت لها متعجبًا إنها تبدو كما لو كانت تتعمد الهرب من زوجها وبيتها، فإذا بها - بدلاً من أن تنفى ذلك عن نفسها - تجيبنى بالإيجاب. وأُخذْتُ بإجابتها غير المتوقعة وسألتها بغضب: هل ترغبين فى الانفصال؟ فَإذا بها تجيبنى أيضًا بالإيجاب! وفى هدوء شديد! وشلَّت الصدمة عقلى عن التفكير ولم أحر جوابًا، وأحسست بانكسار لم أشعر به من قبل فى حياتى، تجاهها، أو تجاه أى إنسان آخر، ووعدتها بالتفكير فى مطلبها، ووضع حل لمشكلتنا خلال فترة قصيرة، وتعجبت من أن تفصح زوجتى عن رغبتها فى الانفصال عنِّى بهذه البساطة، ونحن الزوجين اللذين لم تشهد حياتهما الزوجية خلال عشرين سنة، أية أزمة حادة ترددت فيها من قبل كلمة الانفصال، ودون التوقف لحظة عند أثر هذا الانفصال على أبنائنا الثلاثة، وعلى حياتى وشخصى. وذهبت إلى عملى مهمومًا بما سمعت وما لمست.

وبعد أيام عرفت أن زوجتى كانت قد اعترفت لشقيقتها، قبل مواجهتى بطلب الانفصال بيومين، بأنها قد تعرَّفت منذ شهر ونصف الشهر فقط، إلى شخص مطلَّق فى نفس عمرى، وأنها سوف تطلب منِّى الانفصال لكى تتزوج هذا الشخص الغريب، الذى لم تعرفه إلاَّ منذ ستة أسابيع، فوبختها شقيقتها على ذلك ونهرتها وطردتها من بيتها، وقامت بإبلاغ والديها بما سمعت من زوجتى، فاستنكرا بشدة هذا التصرف الغريب من ابنتهما، ونصحاها بألاَّ تطلب الانفصال عن زوجها، الذى

عاشرها بالحسنى والحب والاحترام، ولم يرفض لها طلبًا كل هذه السنين، ولم تستجب زوجتى للنصيحة، فكان ما بينى وبينها، وواجهت زوجتى بما علمت، وأنا أتمنى فى أعماقى ألاَّ يكون صحيحًا أو أن تنكره حياءً وخجلاً منى، فإذا بها لا تنكره وتقول لى : إنها ترغب فى الانفصال فعلاً، وإن هذا الشخص الذى تعرفت إليه أخيرًا هو فعلاً أحد أسباب الانفصال، لكنه ليس كل أسبابه!

وبإحساس مرير بهوانى على شريكة عمرى، سألتها عن الأسباب الأخرى لرغبتها فى الانفصال، فلم تجبنى سوى بعبارة «النصيب كده» وبأنها تشعر بأنها لم تستطع إسعادى خلال السنتين الأخيرتين من زواجنا.

ولم يكن مبررها هذا صحيحًا مع الأسف، برغم أن حياتنا قد شهدت خلال هذين العامين بعض الخلافات، بسبب خروجها المتكرر بإذن ودون إذن، فقد كانت هذه الخلافات العابرة تنتهى دائمًا بالصلح، وبغير أن تترك أثرًا على علاقتنا، ولم أجد أية جدوى من المناقشة أو المطالبة بإعادة التفكير فيما قررت، ووضح لى تمامًا أنها قد حسمت أمرها ولم يعد يجدى الكلام معها، سوى مزيد من المعاناة لى، وتم الطلاق بيننا وأنا شبه مذهول.

وبسرعة رهيبة تنازلت زوجتى عن كل ما تملك، كالسيارة والمجوهرات إلخ، وبرغم تألُّمى لتنازلها بهذه السهولة عن كل شىء، مما يشير إلى رغبتها الأكيدة فى الحصول على الانفصال، فإننى كنت

كريمًا معها وأعطيتها مبلغًا مناسبًا من المال، وبعض الحلى التى طلبتها والتى لم تطلبها، وكل متعلقاتها الشخصية، وأخذت ذلك وتركتنى وحيدًا مع أولادى الثلاثة، على وعد منِّى، بأن أردها إلى عصمتى إذا طلبت هى ذلك ذات يوم، ووجدت نفسى بعد عشرين عامًا من الزواج وحيدًا مع أبنائى على غير انتظار .

إن زوجتى «السابقة» وأم أولادى من أشد المعجبين بآرائك، وهى التى علَّمتنى أن أقرأ لك بانتظام منذ عشر سنوات، كما أنها على درجة كبيرة من العلم والثقافة فى مجالات كثيرة، ولهذا أرجو أن تكتب لها رأيك بصراحة، فيما فعلت بحياتها وحياتى وحياة أبنائنا، عسى أن تشعرها كلماتك الأمينة بالذنب تجاه ما اقترفته فى حقى وحق أبنائها وحق دينها. . وشكرًا لك مقدَّمًا .

من يعرِّض صدره للتيارات الهوائية والعواصف، تصيبه نزلات البرد، وتزداد فرص إصابته بها، وتتضاعف خطورتها عليه كلما كانت مناعة الجسم ضعيفة، وزوجتك السابقة - يا سيدى - عرَّضت نفسها منذ عامين لتيارات هوائية شديدة، بانقلابها على أسلوب حياتها العائلي الهادئ والآمن، وخروجها المتكرر منفردة بإذنك وبغير إذنك، وتأخرُها خارج بيتها إلى ما بعد الموعد النهائى، وانضمامها إلى «اجتماعات الأصدقاء»، ومن بينهم من لا ترتاح أنت إليه خلقيًا، وصادف ذلك ضعفًا عابرًا فى المناعة لديها، يرتبط غالبًا بأزمة منتصف العمر، التى يساور فيها البعض إحساس مرضى، بأن العمر قد تسرب من بين يديه، بغير أن يعرف «لسع الحب «الحقيقى» ونشوة السعادة الخالصة، وأن ما مضى من العمر كان لحساب الغير، ولحساب الأبناء والمسئوليات العائلية والاعتبارات الاجتماعية، وأن ما بقى منه ينبغى أن يكون للسعادة الذاتية وحدها، دون التوقف أمام أى اعتبار آخر، وبلا تنازل ولا تضحيات من أجل أحد، ولو كانوا الأبناء أنفسهم، وهو تفكير ذاتى أنانى إذا تسلط على إنسان ما فإنه قد يقدم فجأة على غير المتوقع منه، فيضرب عرض الحائط بكل الاعتبارات، وينطلق وراء ما يتوهم أنه سعادته الحقيقية، غير عابئ باستنكار الآخرين ورفضهم، بل واحتقارهم أيضًا.

وأحسب أن هذا هو ما حدث بشكل أو بآخر لزوجتك السابقة، التى لم تشهد حياتك معها خلال عشرين عامًا أى مؤشرات تنذر بمثل هذه النهاية الفاجعة، ولهذا فإن أى كلام معها الآن لا يجدى فتيلاً، وهى تعيش ذروة تجربتها «الرومانسية»، وتصم أذنيها عن كل نداء سوى نداء السعادة الشخصية، خصوصًا أنها قد تغلَّبت فى سبيل المضى إلى هدفها على كل التحديات، الكفيلة بأن تردع أية امرأة أخرى عن الاستجابة لنداء مثل هذه المغامرة، كالأبناء، ونظرة المجتمع والأهل والأقارب، وإحساس الرفض والاستنكار من الجميع، وإنما يجد الكلام سبيله إلى أذنيها وعقلها حين يخفت هدير الأنغام الرومانسية، الذى يفح الآن فى أذنيها، ويحجب عنها نداء الواجب والضمير، وحين تختفى الأنغام وتنكشف لها التجربة «الوردية»، عن حياة واقعية أخرى، ككل حياة قد لا تختلف عن حياتها السابقة فى شىء، وقد زالت غشاوة حب النظرة الأولى وهو «قرين الجنون»، كما يقولون فرأت فى «الآخر» كل ما حجبته عن عينيها من قبل مؤثرات التجربة العاطفية فى عنفوانها من مثالب وعيوب، ووجدت بين يديها قبض الريح، وعرفت بالمقارنة كم كانت ظالمة لك حين تنكرت لك، وأنكرت عليك فضائلك، وعميت عن حسن معاشرتك لها، وتسامحك المغالى فيه معها، فتبدأ التساؤلات «الأخرى» المعتادة أيضًا فى وجدانها فتتساءل:

- هل كان ما تصورت أنه «الحب الحقيقى»، الذى عثرت عليه بعد طول انتظار، يستحق ما ضحيت به من أجله؟ وما فقدته فى الطريق إليه؟

- هل كان يستحق التضحية بزوج فاضل محب متسامح، طيب القلب والعشرة، يحرص على إرضائى وتلبية رغباتى؟

– هل كان يستحق أن يحمل لى الأبناء بسببه هذه المشاعر العدائية، وأن تنطوى صدورهم لى على الكراهية بديلاً لمشاعر الحب التى طالما استمتعت بها؟

– هل كان يستحق أن أفقد من أجله اعتبارى واحترامى السابقين، فى أعين الأهل والأقارب والأصدقاء؟ وأن أبدو أمامهم فى صورة الأم التى ضحت ببيتها وسمعتها، وسمعة عائلتها جريًا وراء أهوائها؟ وتنكرت لأبيهم بعد عشرة هادئة لمدة عشرين سنة؟ وتزوجت كالمراهقات من تصورت أنها قد وقعت فى حبه من النظرة الأولى، عقب معرفة لم تطل أكثر من ستة أسابيع؟

ولن يكون الجواب عن كل هذه التساؤلات غالبًا سوى: «لا». مريرة مدوية، تجعل من التجربة كلها عبثًا كالعبث، وخطأ من أخطاء العمر التى لا يغسلها موج البحر، فى هذه المرحلة فقط من تجربتها يمكن الحديث إلى زوجتك السابقة، ويجد الكلام طريقه إلى عقلها وقلبها، أما فيما قبل ذلك، فأصدق تصوير لحالتها الآن، هو ما أبدعه الأديب الفرنسى «دى لاكلو» فى قصته الوحيدة «العلاقات الخطرة»، على لسان كونت مولع بالإيقاع بالفضليات من النساء، وهو يتحدث عن زوجة متدينة فاضلة ينسج حولها شباكه فيقول:

– نعم يلذ لى أن أرى هذه المرأة المتدينة، تتورط بغير أن تشعر شيئًا فشيئًا فى طريق لا رجعة لها منه، وتهبط منحدراته درجة بعد درجة ورائى، ومن حين إلى آخر قد تتوقف برهة حين تتبين حجم الخطر الذى

يهددها، وتتباطأ خطواتها قليلاً، لكنها تواصل الهبوط ثم يدفعها الخوف القاتل من الحضيض الذى ينتظرها أسفل المنحدر، لأن تبذل محاولة أخيرة للرجوع للخلف، فلا تلبث قوة سحرية غامضة أن تجذبها إلى نقطة أبعد من تلك النقطة التى توقفت عندها، وهى تحاول إنقاذ نفسها من الهبوط للمرة الأخيرة، فالانزلاق يبدأ عادة بخطوة واحدة على المنحدر، وحين يبدأ وتساعده عوامل أخرى، يرجع عنه دون أن يصل إلى هاوية القاع، حتى ولو حاول ذلك.

ولقد بدأ الانزلاق منذ عامين يا سيدى، وليس منذ شهرين كما تتصور، وساعدها عليه تسامحك الزائد معها فى الخروج بإذنك وبغير إذنك، وفى السماح لها بالانضمام إلى «اجتماعات الأصدقاء»، لما بعد الموعد النهائى للعودة أو ما قبله، وفى قبولك لانضمامها إلى هذه الاجتماعات، وبين «الأصدقاء» من لا ترتاح إليهم ولا تثق فى التزامهم الأخلاقى.

فهيَّأ كل ذلك - مع عوامل أخرى - زوجتك السابقة للاستجابة إلى نداء «القوة السحرية» الغامضة، التى تجذب من وضع أقدامه على أول المنحدر، وتشده إلى أسفل فيواصل الهبوط حتى لو توقف فى منتصف الطريق محاولاً الرجوع إلى الخلف!

وأتحدى زوجتك التى لا أعرفها، وليس يسعدنى كثيراً إعجابها بآرائى، أن يختلف إحساسها وهى تهبط خطوات عدم الالتزام الدينى والخلقى بزوجها وأبنائها وبيتها، عن هذا الإحساس الذى صوَّره ذلك الكونت الخليع عن مراحل تدهور المرأة الفاضلة.

ولو كانت آرائى قد وجدت صدى حقيقيًا لديها، لما أقدمت على التضحية بسعادة ثلاثة أبناء، وأمانهم واستقرارهم طلبًا للسعادة الشخصية وحدها، حقيقية كانت أم «موهومة».

فالحق إنى لا أقر أبًا ولا أمًا على ذلك، إلاَّ فى حالات نادرة يكون فيها البديل الوحيد «المؤكد»، لاستمرار العلاقة الزوجية هو الوقوع فى هاوية الخطيئة، وبعد استنفاد كل محاولات الإصلاح، ومجاهدة النفس وردعها عن التضحية بسعادة الآخرين طلبًا لسعادتها.

فليس بمثل هذه الخفة يتعامل الإنسان مع حياته، ومع حياة الآخرين، الذين يرتبط أمانهم وسعادتهم به، ولا يكلف الله نفسًا إلاَّ وسعها فى النهاية، فإذا كان لزوجتك السابقة ما يشفع لها عندى بعض الشيء، فهو أنها لم تطل فترة «عدم وفائها» لك أكثر من ذلك، ولو أنصفت لأنهتها النهاية المثلى بقطعها للصلة الأخرى، والاحتماء بأبنائها ضد هوى نفسها، والندم الصادق على هذه الفترة من عمرها، وليس بانفصالها عنك، وعن أبنائها، لاستكمال أنشودة الحب الموهومة فى منتصف العمر.

لكن الإنسان يختار حياته فى النهاية بإرادته واختياره، وليس بعقول الآخرين ولا تمنياتهم، ولقد أشعلت زوجتك الشمعة من طرفيها، فاختصرت بذلك عمرها إلى النصف، أو أكثر وسرعان ما سوف يذوب الشمع.. وتنكشف الأوهام عن الواقع المرير، وعندها يكون لكل مقام مقال.

فإذا كنت يا صديقى أقدِّر آلامك وأحزانك وأحس - بحق - جرحك الشخصى، وأنت تستشعر هوانك على من أخلصت لها الود عشرين عامًا وأكثر وترى عشك الآن ينهدم فجأة، وتضطرب حياتك وحياة أبنائك، وأنت فى السن التى يتأهل فيها الإنسان، لأن يمضى أيامه محتميًا بدفء الأسرة وعواطفها الصادقة، إذا كنت أشاركك كل هذه المشاعر، فلست أفهم - برغم ذلك - الحكمة فى أن تعدها بإعادتها إلى عصمتك حينما تطلب هى ذلك، كأنك تطمئنها بذلك على وجود البديل الآمن، الذى ينتظرها بصبر وأمل إذا فشلت مغامرتها العاطفية، أو تكشفت لها عن نزوة جامحة، لم تضمن لها السعادة المنشودة. والأقرب للإنصاف أن تعتبر زوجتك فترة العدة التى تقضيها الآن، وتنتظر انتهاءها لترتبط بالآخر، فترة مراجعة للنفس تقوم خلالها . . وللمرة الأخيرة . . بتقويم تجربة السنوات العشرين معك، ومسئولياتها تجاه أبنائها وتجاه أسرتها وعائلتها، فإذا انتصر صوت الضمير والذكريات الطيبة وعرفت لك قدرك، وعرفت لأبنائها حقهم عليها، واختارت العودة نادمة إليك قبل الزواج من الآخر، فلا بأس بعودتها حرصًا على مصلحة الأبناء، وسلامة بنيان الأسرة، أما إذا خاضت التجربة حتى الثمالة وتزوجت الآخر فلا تنتظرها يا صديقى، ولا ترض لنفسك بأن تكون الاحتياطى الاستراتيجى لها، فى حالة فشل مغامرتها الهوجاء هذه، وإنما ابدأ حياة جديدة تعوضك عما لقيت من شريكة العمر، من غدر ونكران، أو كرِّس حياتك لأبنائك إذا رغبت فى ذلك، مفوِّضًا أمرك فيمن اغتال سعادتك وأمانك إلى من لا يغفل ولا ينام.

« من أعماق الظلام واليأس يولد دائمًا شعاع أول ضوء. وليس بالطب وحده يشفى الإنسان، بل إن إرادة الله ومشيئته فوق الحسابات والقدرات كلها ».

3

هممت بأن أكتب إليك قصتى أكثر من مرة خلال الشهور الماضية، وفى كل مرة يحدث ما يجعلنى أؤخر كتابتها لك، إلى أن شعرت فى الأيام الأخيرة، بأن هناك واجبًا إنسانيًا وأخلاقيًا يفرض علىّ أن أروى لك قصتى هذه، ليستفيد بها غيرى من البشر.

فأنا يا سيدى رجل متوسط العمر، تخرجت فى كلية الطب منذ نحو 25 سنة، وعملت طبيبًا بإحدى بواخر الركاب المصرية، التى كانت تعمل وقتها بين الإسكندرية وموانئ إيطاليا واليونان، وقد ألهب عملى على هذه الباخرة أحلام السفر فى مخيلتى، فبدأت أحلم بالإقامة والعمل فى إحدى الدول الأوروبية، وفى إحدى رحلات العودة من أوروبا إلى الإسكندرية، تعرفت فوق ظهر الباخرة إلى فتاة مصرية كانت عائدة من تدريب صيفى لها فى انجلترا، وجذبت نظرى بأدبها وشخصيتها المتزنة، وثقتها فى نفسها، وعلمت أنها تدرس بكلية الاقتصاد المنزلى وتسافر كل صيف إلى انجلترا للتدريب على العمل الفندقى، وفاتحتها برغبتى فى الارتباط بها، فلقيت قبولاً لديها، ورست الباخرة فى ميناء

الإسكندرية، وهى مدينتى ومدينتها فزرتها فى بيتها، فى خلال خمسة أيام فقط كنت قد خطبتها، وعقدت قرانى عليها، واتفقت أحلامى مع أحلامها فى السفر إلى انجلترا، والعمل بها بعد تخرجها، وجئت إلى لندن فى أوائل السبعينيات، حين كانت مقصد كثير من الشباب المصريين الراغبين فى العمل، وبدأت أحقق حلمى فى استكمال دراساتى العليا فى الطب، والعمل فى الوقت نفسه، وقابلنا الصعوبات التقليدية التى تواجه زوجين شابين يبحثان عن إتمام مستقبلهما فى بلاد غريبة، وتعاونًا فى بناء أسرتنا الصغيرة، فلم ألبث أن انشغلت عن إتمام دراساتى العليا، بالعمل الشاق المتواصل لمواجهة متطلبات الحياة، ومارست أكثر من نشاط وعملت دائمًا فى عملين فى وقت واحد، وكافحت مع زوجتى كفاحًا شاقًا لتأمين مستقبل أسرتنا الصغيرة، إلى أن استقرت بنا الأحوال فى لندن، وأصبحت لنا شقة صغيرة جميلة، واستقرت زوجتى فى عمل مناسب لدراستها بأحد الفنادق، وحققت فيه مركزًا طيبًا، وتنقلت أنا بين أكثر من وظيفة فى غير المجال الطبى.

وبدأنا نتنسم نسائم الراحة والاستقرار، فأنجبنا طفلتنا فأضافت إلى حياتنا لمسات بهيجة وسعيدة والتحقت ابنتى بمدرسة الأطفال، وأظهرت تفوقًا واضحًا، وتقدمت فى دراستها الابتدائية بنجاح، وبعد ٧ سنوات من مجيئها للحياة، اشتاقت زوجتى إلى طفل آخر، فأنجبنا طفلى الوحيد، واكتملت أسرتنا الصغيرة السعيدة واستقرت أوضاعنا المالية، ووجدت نفسى قادرًا بمدخراتى على إنشاء مشروع صغير خاص بى، فاشتريت محلاً تجاريًا وأدرته وحققت فيه نجاحًا طيبًا والحمد لله.

وخلال ذلك واصلت ابنتى تقدمها فى دراستها حتى دخلت المرحلة الثانوية، وأصبحت ابنتى وصديقتى التى أحبها، وأستريح للحديث معها، وأعتز كثيراً بحب أهلى فى مصر، وأصدقائى فى لندن لها، وتقديرهم لشخصيتها العطوف وروحها المصرية الودود، التى لم تتأثر بالنشأة فى مجتمع لندن، ولقد شغلتنى مشاغل الحياة والعمل خلال السنوات الأخيرة عن زيارة أهلى فى مصر، برغم اتصالى المستمر بهم؛ فكانت تحرص - هى - على أن تزور مصر كل صيف؛ وتسعد بوجودها بين أهلها، وتترقب بلهفة موعد سفرها إلى بلدها كل سنة.

وبلغت ابنتى الحبيبة عامها السادس عشر، ووصلت إلى السنة النهائية فى دراستها الثانوية، التى تؤهلها للالتحاق بالجامعة، وبدأت تستعد لتحقيق حلمها الكبير فى الشهادة الجامعية، فلاحظت ذات يوم أن رقبتها منتفخة بعض الشىء، وقدرت كطبيب مارس الطب بضع سنوات، أن غدتها الدرقية ملتهبة، وتحتاج إلى علاج الغدة المعروف، فعرضتها على طبيب الحى الذى كتب لها العلاج التقليدى، لكن مضت أيام ولم يختف الانتفاخ، فعرضتها على طبيب آخر فلم يهتد إلى شىء محدد، ونصحنى بعرضها على أطباء مستشفى كبير فى لندن، وفعلت ذلك، فلم يكشف الفحص الأول أيضًا عن شىء، وتم احتجازها فى المستشفى، وبدأت سلسلة الفحوص والأشعات والتحاليل لكل جزء فى الجسم، ومحاولة تشخيص مرضها.

وفى خلال هذه المرحلة فوجئت بتدهور سريع وعجيب فى صحتها وقواها، وتجددت مخاوفى وهواجسى كطبيب من أن تكون ابنتى الحبيبة

قد هاجمها المرض اللعين، الذى يجفل الإنسان لسماع اسمه، ويصارحنى الطبيب الكبير الذى يشرف على علاجها بأنه لم يهتد بعد إلى تشخيص مرضها الغامض الغريب، وأن كل ما يفعله هو أنه يجرى فحوصه واختباراته على أعضاء جسمها عُضواً عضواً، ليقول لى فى كل مرة إن المرض اللعين لم يهاجم هذا العضو أو ذاك، ثم ينتقل بالفحوص والعلاج إلى غيره، أما ا بنتى فإنها تنتقل من سيء إلى أسوأ، وإنا أرقبها فى عجز وقهر وألم، فلقد بدأت تفقد سيطرتها على عملية الإخراج، وهى الفتاة الجميلة فى عمر الزهور، ثم بدأت تفقد القدرة على تحريك ذراعيها وساقيها، ثم القدرة على الكلام والبلع وتناول الطعام أو الشراب، وبدأت تفقد بعد ذلك ذاكرتها، ولا تكاد تتعرف علىَّ أو على أمها التى تركت عملها ووظيفتها ولازمتها فى المستشفى، ثم وصلت حالتها إلى الحضيض، فلازمت الفراش فى العناية المركزة مفتوحة العينين لا تعى شيئًا ولا تحس بشىء من حولها، واشتد كربى وهمِّى بما أر اه، فصارحت الطبيب المعالج بهواجسى، من أن تكون ابنتى الحبيبة قد راحت ضحية لذلك المرض النادر الغامض، الذى درسناه فى الكتب فى الزمن الماضى، ولم أر حالة عملية واحدة له فى حياتى، وهو مرض «لوباس» أو اختلال جهاز المناعة فى الجسم، الذى يؤدى إلى أن يحارب الجهاز الجسم ويهاجم أعضاءه بدلاً من أن يدافع عنه، وقلت ذلك للطبيب وأنا أدعو ربى أن يكذب مخاوفى، ويستبعد هذا الاحتمال المخيف، فإذا به يصارحنى بأنه يشك فى الشىء نفسه، ويجرى اختباراته للتأكُّد منه وكدت أنهار مغشيًّا علىّ، حين سمعت ذلك وصرخت فى أعماقى طالبًا رحمة ربى . . بى وبها وبزوجتى وأسرتى .

وبدأ العلاج يسير فى هذا الاتجاه، بعد أسابيع قاسية من المحاولات الفاشلة فى كل اتجاه، وبدأ الطبيب المعالج علاجه بتغيير البلازما الملوثة بفيروس «لوباس» القاتل فى دمها كله، ببلازما جديدة نظيفة منه. وبسبب علاجها بمضادات المرض الخبيث القوية، تساقط شعر ابنتى الجميل حتى أصبحت صلعاء تمامًا، وذهبت ذات يوم إلى المستشفى وأطللت من خلف الزجاج على ابنتى الراقدة بلا حراك فى فراشها، فرأيت زوجتى تسرح لها الشعيرات القليلة الباقية فى رأسها، وتغنى لها أغنياتها القديمة التى كانت تهدهدها بها، وهى طفلة رضيعة، فانهمرت الدموع من عينى بغزارة، وبكيت كما لم أبك من قبل طوال حياتى، وزاد من كربى إدراكى أن زوجتى تعلم جيِّدا أن ابنتنا المريضة لا تسمع ولا تعى ما حولها، ومع ذلك فهى تمضى الساعات الطويلة إلى جوارها تحدثها، وتحكى لها عن أحداث يومها وما قاله أبوها، وما قاله الأطباء والأصدقاء، وتروى لها عن الذين سألوا عنها وتبلغها تمنياتهم الطيبة، وحين أقول لها إنها لا تسمع تجيبنى بإصرار بأنها تسمع وتعى وتحس بما حولها، وإنها ستشفى وستعود للوقوف على قدميها من جديد، وغادرت المستشفى حزينًا مهمومًا.

وزاد من همى أن ابنى الذى يبلغ من العمر تسع سنوات، قد انتابته هو الآخر حالة نفسية غريبة، فراح يأكل بلا وعى ويزداد وزنه بشكل مخيف، ويسألنى أسئلة تعبر عن مخاوفه من المستقبل، فهو لا يريد أن يبيت معى فى مسكننا الخالى، ويسألنى ماذا أفعل وحدى لو استيقظت فى الصباح فوجدتك ميِّتا!

وانفجرت مرة أخرى فى البكاء، وأنا أحس بأن أسرتى الصغيرة الجميلة التى كانت قرة عينى تنهار أمامى كلها، فابنتى قد تحولت إلى ما يسميه الأطباء مجرد دمية تتنفس، وتتم تغذيتها بالمحاليل، ولا تتحرك ولا تعى ولا تحس ولا تتذكر. وزوجتى تلازمها منذ شهور فى المستشفى، وتهلوس بالحديث إليها لفترات طويلة، مع أن زوجتى كانت أكثر صلابة منِّى فى مواجهة الموقف وفى التمسك بالأمل، وطفلى الصغير قد أصبح فى حاجة لعلاج نفسى، وأنا الذى كافحت عشرين عامًا لم أهدأ خلالها يومًا عن العمل: لم تعد بى رغبة فى العمل ولا فى أى شىء، وأتساءل عن جدوى الأشياء، وقيمة النقود التى كافحنا طويلاً للحصول عليها. وكنت قد انتقلت لممارسة نشاط تجارى آخر، قبل مرض ابنتى بفترة قصيرة بعد تعثر مشروعى السابق، فافتتحت مع شريك لى مكتبًا لتوريد الأدوات المكتبية للهيئات والشركات والسفارات، وأصبحت المسئول عن جانب التسويق فيه، فكنت أخرج لمقابلة العملاء وأعرض أسعارنا عليهم، وأنا لا أعى ما أقول ولا أسمع ما يقولون، ومع ذلك فقد كنت أحصل على عقود توريد لا أعرف حتى الآن كيف حصلت عليها، ولا أستطيع تفسيرها إلاَّ بأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يمدنى بالمال لأعالج به ابنتى، التى تتلقى علاجها فى مستشفى خاص، وليس فى مستشفى حكومى بسبب قوائم الانتظار الطويلة فى التأمين الصحى المجانى.

وكلما اشتد كربى رفعت سماعة التليفون، وطلبت أمى فى مصر وبكيت، كما كنت أبكى على صدرها وأنا طفل صغير، وسألتها ماذا

أفعل يا أمى؟ فتشد من أزرى وتقسم لى أن ابنتى ستشفى وستتحرك وستعود لمدرستها، وستنجو بإذن ربها من كل سوء، وفى هذه الفترة أكَّد لى كل من قابلتهم من الأطباء الإنجليز - بموضوعيتهم القاسية المخالفة لطبيعتنا - أنه لا أمل فى نجاة ابنتى من المصير المحتوم، فجهاز المناعة المتوحش الذى أفلت عقاله يهاجم كل فترة عضواً جديداً ، وقد شارفت على الفشل الكلوى، وتم علاجها منه وشارفت على الفشل الكبدى وتم علاجها وقد. . وقد. .

فاستقر اليأس فى أعماقى، وبدأت أفكر فى المصير، وتشاورت مع زوجتى حول «المكان» الذى سنودع فيه وديعتنا الغالية حين يحم القضاء، وهل نعيدها إلى ثرى مصر أم نحتفظ بها إلى جوارنا؟ واستقر رأينا على أن يكون المكان فى الجوار القريب، مادمنا نعيش فى لندن ولا نخطط للعودة لمصر؛ حتى تكون قريبة منا ونستطيع «زيارتها» كل أسبوع، وفى وسط هذه الأفكار السوداء ذهبت إلى المسجد الكبير فى شارع بارك رود، الذى كنت أؤدى فيه من حين لآخر صلاة الجمعة، فسمعت الخطيب يروى الحديث القدسى عن الله سبحانه وتعالى الذى منه «. . وإن أتانى يمشى أتيته هرولة».

فصرخت فى المسجد يارب أتيتك هرولة فاقبلنى فى عبادك التائبين، واعف عن ابنتى أو فارحمها وعجِّل بنهايتها، ولم أبال بنظرات المصلين، وواظبت على الصلاة من يومها، وبدأت أستشعر سكينة غريبة، وأنا ساجد لربى أصلى، لم أكن أحس بمثلها من قبل وازدادت سكينتى حين سألت الطبيب الكبير ألا من أمل فى شفاء ابنتى ذات يوم؟ فأجابنى

بصراحة سافرة بأنه كان يتوقع لها الموت فى يوم محدد منذ شهر، لأن فحص المخ قد كشف عن سبع إصابات متتالية فيه بسبب اختلال جهاز المناعة، وشكا لى من أنه كلما فرغ من علاج عضو بالجسم، اكتشف إصابة عضو آخر، وهكذا بلا نهاية، لكنها برغم ذلك لم تمت فى الموعد الذى توقعه فتجدد الأمل لديه، ثم حدثت لها نكسة أخرى وتوقع وفاتها فى موعد آخر فنجت منها أيضًا، وأضاف أن ذلك كله لا علاقة له بالطب لكنه ربما يكون لإرادتها القوية فى الحياة، أثر فى اجتيازها لهذه المحن المتتالية؟

شعرت فى هذه اللحظة فقط بأن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عن ابنتى، ولن يسلمنى لليأس من رحمته وفوجئت ـ عند زيارتى للمستشفى ـ بزوجتى فى حالة معنوية عالية؛ وما إن رأتنى حتى صاحت فى وجهى بأنها قد تكلمت، نعم تكلمت فى الليل ونطقت بضع كلمات، عبرت بها عن رغبتها فى الذهاب إلى الحمام، ثم عادت للصمت والذهول، الله أكبر إذن فهناك أمل لأول مرة فى أن تعود لحالتها الطبيعية ذات يوم، وبعد شهور من الرقاد بلا حراك. . ولا كلام.

ثم بدأت «الأخبار» تتوالى علىّ بعد ذلك من حين لآخر، ومن أتفه الأشياء كنا نستشعر البهجة والأمل فى الله، لقد تأوهت، لقد بدا على وجهها تعبير يوحى بأنها تعرف أمها، لقد بدت كما لو كانت تريد الكلام أو طلب أى شىء، لقد أدارت وجهها يمينًا وشمالاً ترقب المكان! وكلما سمعتُ شيئًا من ذلك أدركت مدى خطئى حين عشت حياتى كلها مؤمنًا بالحقائق العلمية المجردة وحدها والحسابات الدقيقة.

وتذكرت نفسى حين كنت أستقبل مصريًا جاء مع ابنه أو ابنته، أو زوجته للعلاج فى لندن، وأساعده على دخول المستشفى ثم أعرف الحالة، وأدرك كطبيب أنها حالة ميئوس منها، فأتعجب من تعلق الإنسان بالأمل الواهى، حتى النهاية برغم الدلائل الواضحة، وأتساءل بينى وبين نفسى : لماذا تكبَّدوا مشاق السفر والتكاليف الكثيرة لعلاج حالة لا أمل فى شفائها، وسوف تنتهى بالموت لا محالة كما تعلمنا فى كتب الطب؟ والآن عرفت كم كنت مخدوعًا فى الحقائق المجردة، أدركت أنه ليس بالطب وحده تتقرر مصائر الإنسان، وإنما بالإرادة العليا التى تدير هذا الكون وتحكمه. سبحانه وتعالى.

وشيئًا فشيئًا بدأت ابنتى - بعد أربعة شهور مظلمة وقاسية - تستعيد وعيها وتتعرف علينا، ويوم تعرفت علىّ لأول مرة سالت الدموع من عينى كالمطر، ويوم تحدثت إلىّ كنت أرقص من الفرح والسعادة، وقال لى الطبيب بعدها إن علاج ابنتى بالأدوية قد انتهى عند هذا الحد، وإن الأمل فى استعادتها لقدرتها على الحركة والمشى معقود على العلاج الطبيعى الطويل، وإنه حتى إذا لم يتحقق ذلك فإن ما حدث يعد معجزة لا علاقة لها بالطب، ولا يستطيع هو نفسه أن يفسرها، خصوصًا فيما يتعلق بذاكرتها التى بدأت تستعيدها تدريجيًا برغم إصابتها المتكررة فى المخ.

وسجدت لربى حامدًا له وشاكرًا وأنا لا أصدق نفسى، ونقلنا ابنتى فوق الكرسى المتحرك إلى مستشفى العلاج الطبيعى، ونظرت بأسى إلى رأسها الخالى من الشعر، ثم قلت لها إننى سأحلق شعر رأسى بالموسى

لأصبح مثلها حتى ينمو شعرنا من جديد معًا، وحلقت شعرى غير مبال بمظهرى أو بآراء الآخرين.

وفى مستشفى العلاج الطبيعى توالت المعجزات الإلهية، التى أؤكد لكم مرة أخرى كطبيب أنه لا علاقة لها بالطب البشرى العاجز، الذى لم يكتشف من أسرار الجسم إلاَّ قليلاً، فلقد بدأت ابنتى تستعيد قدرتها على تحريك ذراعيها، ثم ساقيها وبدأت تستعيد ذاكرتها بقوة بل ومستوى ذكائها القديم أيضًا، وحين ذهبت ابنتى مع أمها بعد شهور إلى مستشفاها الأول لتأخذ فيه حقنة تعالج بها كل بضعة أسابيع، ورأتها الطبيبة التى كانت مكلفة بمتابعة حالتها لحظة بلحظة تدخل مكتبها سائرة على قدميها، نهضت من مقعدها صارخة: يا إلهى. ثم أمسكت بذراعيها ودارت بها يمينًا ويسارًا وكأنما ترقص معها وهى تضحك وتقول لها إنها لا تصدق عينيها.

وبعد ثلاثة شهور أخرى غادرت ابنتى مستشفى العلاج الطبيعى سائرة على قدميها، وقد استعاد جسمها وظائفه كلها كما كانت الحال قبل الأزمة، ما عدا أصابع يدها اليمنى التى لا تستطيع الانقباض والإمساك بالقلم من تأثير إصابات المخ، والأمل كبير أيضًا فى أن تستعيد قدرتها على ذلك بالعلاج الطبيعى، وبالأمل فى رحمة الله.

وأحسست بأن الله سبحانه وتعالى، قد أخرجنا من ظلمات اليأس والخوف إلى النور من جديد، وقد ذهبت ابنتى إلى مدرستها لإجراء اختبارات الذكاء، التى يتوقف عليها تحديد إمكان عودتها إلى دراستها

من جديد، أو التوقف عنها للأبد، ولم أكن خائفًا لأول مرة منذ بدأت المحنة من نتيجة الاختبار، فإذا كان ربى - جلَّت قدرته - قد أنهضها من فراشها ضد توقعات الأطباء وحقائق العلم والطب كلها، فليس كثيراً أن يعيد إليها ذكاءها ومستواها الدراسى بإرادته سبحانه، وفعلاً فقد جاءت النتيجة محققة لكل الآمال والحمد لله، وتأكدت المدرسة من أن مستوى ذكائها المعهود قد أصبح فى معدلاته السابقة نفسها، وقيدتها فى السنة النهائية من المرحلة الثانوية، كما كانت قبل المرض، وسوف تبدأ دراستها فى سبتمبر القادم، بعد أن ضاع عام دراسى من عمرها، الذى ظننا أنه قد انتهى وستؤدى الامتحان بالكتابة على الكمبيوتر، وليس بالقلم بسبب حالة يدها اليمنى، فماذا أقول حين أعرف كل ذلك سوى: الله أكبر - الله أكبر - الله أكبر؟ لقد أردت أن أروى لك قصتى لأقول لأصدقائك المهمومين، وللمرضى الخائفين كلمتى من جحيم المحنة: «لا تقنطوا من رحمة الله» ولا تفقدوا الأمل فيه أبدًا، مهما كانت سحابات الظلام، فإننى أؤكد للجميع مرة أخرى، إنه ليس بالطب وحده يشفى الإنسان: فالله الخالق البارئ المصور، هو وحده من عنده تفسير كل شىء، وهو وحده من إذا قال للشىء كن فيكون، والحمد لله أولاً وأخيراً والسلام عليكم ورحمة الله.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

من أعماق الظلام واليأس يولد دائمًا شعاع أول ضوء، ولقد شاء ربك جلَّت قدرته أن يمتحنكم بظلام هذه المحنة، حتى ظننتم أنه لن يكون بعدها بصيص أمل، فإذا به يغمركم بضياء رحمته الواسعة، وينتشلكم من أعماق اليأس السحيقة إلى ضفاف الأمل والأمان، فالحمد لله كثيرًا، صدق وعده، ورحم عبده، ومنح عونه لكم جميعًا، فتحدَّت ابنتكم حقائق العلم المجردة كلها، ونجت بإرادته سبحانه من كل سوء.

يا صديقي لقد توقفت طويلاً أمام قصتك الزاخرة بمواقف المحنة والألم، وتفكَّرتُ في دروسها ودلالاتها العديدة، وتمثَّلتُ مشاعر الأب المكلوم الذي كافح طويلاً ليبني أسرته الصغيرة، فإذا به يرى البنيان كله يكاد يتصدع أمامه في محنة عاصفة، ويرى ابنته الحبيبة المحبوبة من الجميع، تغيب عن عالمه إلى المجهول، ويطول غيابها حتى بدأ يفكر محزونًا في عاقبة الأمور، ويبحث مع زوجته أعانها الله على أمرها، أين يكون مثوى حبة القلب المكلوم، ثم في غمار المحنة القاسية يولد شعاع أول ضوء، وتكون البداية من جانبه إحساسًا غريبًا بالسكينة ينزل على قلبه وهو في صلاته، فيفوِّض أمره لخالقه، ويقول مع الذكر الحكيم: «سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» صدق الله العظيم. فيقول له ربه: «أما وقد سلمت بقضائي فبعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين ولأرفعن عنك كربك وهمك حتى ترى ما كان ضربًا من

المستحيل ميسوراً بأمرى، وحتى يتعجب معك أصحاب الحيل مما كانوا عنه عاجزين».

هكذا تمثلتُ فى خاطرى مشاعرك كأب حزين، فوض أمره إلى خالقه، وفهمت سر السكينة التى نزلت على قلبك، وأنت فى غمار المحنة، وقبل أن يلوح فى ظلامها أول ضوء، وتذكرتُ قول أحد العارفين بالله من الصوفية حين قال: «إن القلب الذى يسكن فيه الله هو القلب المطمئن مهما تقلبت به الأحوال، فإذا عَدم القلب سكينة ربه تلاعبت به أنواء الحياة كما يتلاعب الموج الهادر بسفينةَ فقدت شراعها».

وليس هذا فقط هو كل ما تحمله رسالتك من دلالات ومعان جديرة بالتأمل، فاندفاع طفلك الصغير إلى تناول الطعام بلا وعى، خلال المحنة، إنما يعكس افتقاده للأمان النفسى فى تلك الظروف العصيبة، فلقد وجد شقيقته تتعرض لخطر غامض لا يفهمه، وتغيب عنه فى المستشفى، ووجد أمه تكرِّس حياتها لابنتها المريضة وتقيم معها، ورأى أباه ذاهلاً مضطربًا حزينًا، فاستقر الخوف من المجهول الذى لا يعى أبعاده وأسبابه فى قلبه الصغير، وراح عقله الباطن يتلمس الأمان فى شىء مادى هو الطعام، وهو الشىء الذى يحفظ على الإنسان الحياة، وهذه هى حال آخرين من البشر، حين يتعرضون كباراً وصغاراً لأزمة افتقاد الإحساس بالأمان، أما إصرار زوجتك المقاتلة على أن تحدث ابنتك، وتروى لها أحداث اليوم وأخبار من سألوا عنها، وهى غائبة عن الإدراك، ولا تبدى أية استجابة لما ترويه لها، فهو يعكس إصرار عقلها الباطن على رفض فكرة «غياب» الابنة الحبيبة، والتسليم بها، ويعكس

أيضًا التشبث حتى الاستماتة، بفكرة أنها لازالت فى «الجوار»، وسوف تعود إلى سابق عهدها وتتبادل معها الحديث والكلام، كما كانت تفعل قبل المرض، ومع أنها كانت تفعل ذلك لطمأنة نفسها لا إراديًا، إلى أنها لم تفقد بعد ابنتها الحبيبة ولن تفقدها بإذن الله، فلقد أفادتها كثيراً بذلك من حيث لا تدرى من الناحية الطبية، فالإلحاح المستمر بالحديث إليها وهى غائبة عن الإدراك، كان يسهم فى تنبيه المخ ومساعدته على ألاَّ يستسلم للعدم، كما كان يسهم أيضًا فى تنبيه مراكز الذاكرة فيه ومساعدتها على المقاومة.

ولقد ذكرتنى هذه الصورة الجديرة بالتأمل، بقصة الأم الأمريكية التى صدرت عنها عدة كتب، وقدمت السينما الأمريكية قصتها منذ سنوات، والتى أصيب ابنها لورنزو بمرض غامض، لعله مرض ابنتك نفسه، فتحوَّل معه وهو فى سن العاشرة إلى دمية بشرية تلازم الفراش، لا تحس ولا تعى ولا تستجيب لأى مؤثرات، فكانت الأم تجلس وتتحدث إليه «وتستشيره» فيما تتخذه من قرارات بشأنه، كما لو كان يسمع ويستجيب، وتدير إلى جواره الموسيقى التى كان يحبها، وتستدعى صديقه الوحيد من أقصى الدنيا ليتحدث إليه معها، والابن لا يعى ولا يستجيب، والأب منصرف إلى قراءة الكتب الطبية، ومحاولة اكتشاف العلاج، برغم أنه لم يكن طبيبًا، واستمرت هذه الحال سبع سنوات كاملة بلا يأس ولا تسليم، فإذا بالصبى الراقد فى الفراش يستجيب لما يسمعه لأول مرة بعد هذه السنوات الطويلة، ثم يتكلم مرة، ثم يتذكر ثم يغادر فراشه، بعد حين بغير أثر للمحنة الطويلة سوى أثر

محدود فى قدرته على المشى، وقد حدث ذلك كله ضد توقعات العلم والطب، وحصل الأب على الدكتوراه الفخرية من إحدى الجامعات الأمريكية، لمثابرته المذهلة على ابتكار وتجربة كل أنواع العلاج، حتى استقر على الدواء الذى أصبح يحمل اسم ابنه بطل المحنة.

إن قصتك يا صديقى تحمل الكثير والكثير من الدروس المفيدة، لكن أهم دلالاتها فى نظرى هى رسالتك المؤثرة فى نهايتها لكل المهمومين والمكروبين التى تؤكد لهم فيها - وأنت الطبيب الذى لم يكن يسلم من قبل إلا بحقائق العلم وحساباته المجردة - أنه ليس بالطب وحده يشفى الإنسان، وأن إرادة الله ومشيئته فوق كل الحسابات والقدرات، وأن الطب لم يحط من أسرار الجسم البشرى والنفس البشرية إلاَّ بالقليل، مطالبًا الجميع بأن يتمسكوا دائمًا بالأمل فى رحمة ربهم، وانتظار فرجه، ولقد صدقت فى كل ذلك، «وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً» فمرحبًا بك على شاطئ الإيمان إلى جوار العلم، وهنيئًا لك ولزوجتك الفاضلة نجاة ابنتكما، وأتم الله عليها نعمته، وحقق لها ولكم كل ما ترجونه من سعادة وأمان.

« للكلمة الطيبة أثر كالسحر فى النفوس، فضلاً عن أنها صدقة يجزى الله عنها صاحبها ».

قد تكون مشكلتى هيِّنة بالنسبة لغيرى، لكنها تؤرِّقنى وتفسد علىّ أيامى، فأنا شاب فى الرابعة والثلاثين من عمرى، نشأت فى أسرة متوسطة، بين أب طيِّب متديِّن يعمل مديراً بإحدى الهيئات، وأم موظفة كبيرة أيضًا، كانت زميلة فى العمل وتزوَّجا عن حب وتفاهم، وأختين تصغراننى، فعشت طفولة سعيدة وحياة هادئة، يرفرف عليها الحب العائلى والتفاهم، وقد تعلمنا جميعًا وتخرجنا فى كلياتنا وتقدم لشقيقتىَّ - الواحدة بعد الأخرى - شابان ممتازان فتزوجت الوسطى منذ 6 سنوات، وتزوجت الصغرى بعدها بعام، وسعد أبى بزواجهما وتوفيقهما مع زوجيهما كل السعادة، ويبدو أنه أحس بأن مسئوليته قد اكتملت بزواجهما خصوصًا بعد أن عملت وحققت لنفسى الاكتفاء المادى، فأسلم الروح فجأة- رحمه الله- وهو فى طريق عودته إلى البيت عقب زواج شقيقتى الصغرى بشهرين، ورحل عن الحياة قبل أن يتم الستين بعامين، واهتزت أسرتنا الصغيرة لفقده، غير أن أمى - وهى التى هزها فقدان شريك عمرها من الأعماق - تمالكت نفسها بعض الشىء بعد فترة، وواجهت حياتها بشجاعة، وطالبت كلاً منَّا بأن يواصل طريقه فى الحياة.

وبعد عام من رحيل أبى طالبتنى بأن أتزوج قبل أن يسرقنى الزمن، وشجعنى ذلك على أن أفاتحها بأننى قد ارتبطت عاطفيًا

4

بفتاة جميلة تعمل موظفة بإحدى المصالح الحكومية، وتعيش مع أمها الأرملة التى توفى زوجها منذ 12 عامًا، ولها شقيق وحيد يدرس بالمرحلة الثانوية، وطلبت أمى أن تراها، فاصطحبتها إليها فى مكتبها فى الوزارة، واستراحت لها أمى منذ اللحظة الأولى، وباركت ارتباطى بها وزرت معها بيت فتاتى، فتعرفنا إلى أمها وشقيقها، ومضت الأمور فى طريقها الطبيعى، وقرأنا الفاتحة وبدأنا نستعد للخطبة، وكان أبى قد ترك لى ميراثًا بسيطًا فاستعنت به على الزواج، وعرضت على أمى أن نتزوج فى شقتها إلى أن نستطيع الحصول على شقة ملائمة، وأيدت فتاتى الفكرة بحماسة، لكن أمها عارضتها بضراوة، ورفضت أن أتزوج فى شقة أمى، ولاحظت عصبيتها خلال مناقشتها لى، فهدَّأتها وقلت لها إنه كان مجرد اقتراح للتيسير علينا إلى أن نجد شقة، ومادام لا يلقى القبول فإنى أتنازل عنه واتصلت أمى بأم فتاتى وأكدت لها هذا المعنى، ولاحظت أن فتاتى حائرة وتحس بالخجل، فهوَّنت عليها الأمر، وبدأت فى البحث عن شقة فى حدود إمكاناتى فعانيت الأمرين مع والدتها، إذ كلما وجدت شقة معقولة ومقدمها وأقساطها فى حدود قدرتى، كنت أعرضها على فتاتى وأمها فتفرح بها فتاتى، فى حين ترفضها أمها على الفور، وتلومها على موافقتها عليها، وتشتبك معى فى مناقشة صاخبة حول الشقة تستمر من جانبها بالأيام، وتتصل بأمى لتشرح لها أسباب الرفض بانفعال.

وتكررت القصة ست أو سبع مرات خلال بضعة شهور بالتفاصيل نفسها، وبعض الشقق رفضتها والدة فتاتى لأسباب لا تخطر على بال، وبعضها الآخر رفضت مجرد دخول الشارع الذى تقع فيه من الأصل،

لأنه لا يعجبها أو لا يليق بابنتها، فاتلفَّت فأجد وجه فتاتى يتضرج بالاحمرار، وأسمعها وهى تهمس لها وترجوها دخول الشارع بلا جدوى، وتعود المناقشة الصاخبة وتتصل بأمى لتشرح الأسباب.

وأخيراً وبعد عذاب طويل وفَّقنى الله إلى شقة، لم تستطع أم فتاتى أن ترفضها، مع أنها أقل فى بعض مميزاتها من شقق أخرى رفضتها بلا سبب مقنع، ويبدو أن فتاتى قد استعانت عليها بأقاربها، لتخفف من غلوائها حتى لا أفر هاربًا، أما أنا فكان تفسيرى لذلك أنها أقرب شقة إلى مسكنها، بعد أن عجزت عن إيجاد شقة فى شارعها نفسه، كما طالبتنى مراراً، وكأننى قادر على المعجزات، وحددنا موعد عقد القران، وتقديم الشبكة والزفاف، وعانيت الأمرين مرة أخرى مع والدتها، فى الأثاث وفى كل شىء، فما يعجبنى لا يعجبها وما يعجبها لا يعجبنى، وهكذا وفى كل خطوة تتصل بأمى وتشرح وتشكو، بالرغم من أن أمى أفهمتها أكثر من مرة، إننى رجل ومسئول عن نفسى، وتستطيع أن تناقش معى كل ما تريد.

وبسبب هذه التفاصيل طالت فترة الاستعداد للزفاف حوالى عامين، برغم توافر الشقة والإمكانات المحدودة التى تسمح بإنهاء الأمور فى خلال شهور، ووافقتها على ما أرادت بقدر الإمكان، واعتقدت أن المشكلة قد انتهت، ففوجئت بخطيبتى تدس فى يدى علبة صغيرة مكسوَّة بالقطيفة الزرقاء، وترجونى أن أقدِّمها لأمها مع الشبكة كهدية منى، وفتحتها فوجدت فيها قطعة ذهبية، وتعجبت وتساءلت عن السبب؟ فأجابتنى بأن الهدف من ذلك هو أن أشعر أمها باهتمامى بها، لأنها تبكى

كثيراً كلما اقترب موعد الزفاف، وتقول إنها ستفتقدها بعد أن كرَّست حياتها لها بعد رحيل أبيها.

وأحسستُ بأنَّني مقبل على متاعب جديدة، لم أكن أتوقعها معها، ورفضت أن أقدم العلبة الزرقاء للأم، وقلت لفتاتى إنها فى حاجة إلى ثمن هذه القطعة الذهبية، وإذا أرادت أن تقدمها لها فلتقدمها هى.

لكنها رجتنى طويلاً أن أفعل، وبكت واستعانت بأمى علىَّ فأيدتها ورجتنى ألاَّ أعارض، وفى حفل القران قدمت «شبكتين» واحدة لخطيبتى والأخرى لأمها، ولاحظت بدهشة فرحتها العجيبة، وزهوها بالعلبة الزرقاء التى راحت تعرضها على بعض الحاضرين بسعادة.

وانتهت كل المتاعب وانقضى حفل الزفاف بسلام، ورافقتنا أمى وشقيقتاى وأم العروس بالطبع، وشقيقها حتى باب شقة الزوجية، وانصرف الجميع بعد أن اطمأنوا إلى أن كل شىء على ما يرام، والتفت فوجدت أم فتاتى تجلس فى الصالون فى اطمئنان، وانتظرت أن تودعنا وتنصرف إلى بيتها القريب، بعد انصراف ابنها، ففوجئت به يعود بعد دقائق حاملاً حقيبة صغيرة لأمه، ثم يودعنا وينصرف وحده! ووجدتها ترتب لنفسها بهدوء «منامة» على الأرض فى الصالون، استعداداً لقضاء الليلة فيها. وفى اليوم التالى جاء الأهل يهنئون ففوجئوا بها بملابس البيت المريحة، تتحرك وترحب بالضيوف، وتدير حياتنا من أول يوم، وأمضت والدة زوجتى معنا شهر العسل فى شقتنا لا تفارقنا، إلاَّ للضرورة القصوى، وإذا خرجنا إلى زيارة أو نزهة سبقتنا بارتداء

ملابسها استعداداً للخروج معنا، وإذا ذهبنا إلى مسرح لابد من حجز ثلاث تذاكر، وقد نسيت ابنها الذى يدرس بالمرحلة الثانوية، ويحتاج إلى رعايتها، وكأنه لا وجود له وتدعوه للغداء معنا، وتطالبه بإحضار ملابسه لكى تغسلها له، وإذا «أشار» أحد أقاربها إليها فى التليفون فقط مجرد إشارة من بعيد إلى واجبها تجاه ابنها، أو بعض الوقت بكت واتهمت ابنتها بتحريضه، وخيم الحزن عليها وعلينا، وحاولنا بكل وسيلة الدفاع عن أنفسنا.

وعلى هذا المنوال مضت حياتنا منذ اليوم الأول للزواج، فبعد شهر العسل الذى لازمتنا فيه لحظة بلحظة، بدأت - وبعد أن زاد لوم أقاربها لها - «تفكر» فى العودة إلى بيتها والاهتمام بشئون ابنها بعض الشىء، وبدأت فعلاً تخطف بعض الأيام التى تقضيها فى بيتها، على مضض وترجع سريعًا لتطمئن على ابنتها المحبوبة، وتهتم بشئونها وتعفيها من أن تفعل أى شىء، خلال وجودها وتطهو الطعام نيابة عنها وتقرر كل شىء رغمًا عنها وعنى، وإذا اضطرتها بعض الظروف القهرية إلى البقاء فى مسكنها بضعة أيام، استأذنتنى فى أن تصطحب معها ابنتها فى خلال هذه الأيام، فإذا اعترضت لأنه لا مبرر لذلك، بكت وانهارت ومرضت وحوّلت حياتنا إلى كآبة مستديمة، فاضطر رغمًا عنى إلى الموافقة، وأقضى هذه الأيام فى بيت أمى، التى تتعجب لهذه الحال لكنها تؤكد لى أن زوجتى لا ذنب لها فيه.

وأعود إلى بيتى وتعود الحياة إلى وتيرتها، وكل ما بينى وبين زوجتى لابد أن تعرفه، وإذا أحسّت مجرد إحساس بأنها تحاول الاحتفاظ بأى سر

يخصُّنى، هاجت وبكت ومرضت، وخيم الحزن على البيت فأطلب من زوجتى ألاَّ تخفى عنها شيئًا والأمر لله!

وككل زوجين: هناك أوقات صفاء، وأوقات خلافات عابرة، وإذا حدث خلاف من هذا النوع، نتباعد بعض الوقت ثم يعود الصفاء بيننا بعد ساعة أو ساعتين، أما والدة زوجتى فإنها لا تصفو لى ولا تبتسم فى وجهى قبل بضعة أيام، أحس خلالها بالكراهية تجاهى تنطق بها ملامح وجهها، وتقوم على الفور بالاتصال بأمى، والشكوى لها من تفاصيل تافهة، وقد غضبت من أمى غضبًا هائلاً وخاصمتها حين قالت لها إن لديها بنتين متزوجتين، ولا تتدخل فى حياتهما كما لا تتدخل فى حياتى، وأحالت الدفة على الفور إلى شقيقتىّ وهما تصغراننى فى السن، مع ما فى ذلك من إحراج لى، ومع ما فيه من إذاعة أسرار شخصية بلا أى مبرر، أما فى الأيام العادية، فهى لا تفارق زوجتى وتذهب معها إلى محلات البقالة والخضروات والجزارة، وتحاول أن «تنظم» لها كل مساء لو استطاعت زيارة عائلية لبعض أقاربها، برغم احتجاجى وحاجتى لوجود زوجتى معى، وتختار من الأقارب من لا أعرفهم حتى لا تشجعنى على أن أصاحبهما فى الزيارة، وإذا اعترضت وقفت زوجتى حائرة، وبكت الأم.. إلخ.

ثم وقعت الواقعة التى لم تشهدها أسرة من قبل، وهى حمل زوجتى وظهور أعراض الحمل المألوفة عليها، ولن أطيل فى شرح ما تجرعته من معاناة معها، بسبب حمل زوجتى كأنها أول امرأة فى التاريخ تحمل وتلد، لكن يكفى أن أقول لك إننى طوال 8 شهور، كنت مطالبًا بحبس

أنفاسى تمامًا احترامًا لحمل زوجتى، وإننى الآن فى ضائقة مالية بسبب تكاليف الرعاية ورعاية الرعاية، والمستشفى الخاص الكبير للولادة الذى أصرّت عليه والدتها، برغم معرفتها بظروفنا المادية مع قسط الشقة المرتفع، ثم ما تلا ذلك من رعاية المولود، ورعاية الرعاية ناهيك عن أن زوجتى خرجت من المستشفى على بيت أمها، التى تمسكت بكل وسيلة بأن تقضى لديها أطول فترة ممكنة، وكلما طالبت زوجتى بالعودة تكررت القصة المألوفة!

لقد احتملت كل ذلك برغم ضيقى به، لكننى لم أحتمل ما حدث فيما بعد حين عدنا للبيت، ورجوت أن تعفينا والدتها بعض الشىء من التدخل فى كل شىء فى علاقتى بها، حتى فى أحاديثنا العابرة، ثم اعترضت على تدخل جديد، فإذا بها تنفجر فى وجهى، وتهين كرامتى بألفاظ جارحة لم أسمعها من قبل: فوقفت أمامها مذهولاً أفكر فيما أفعل معها وهى فى سن أمى، ونظرت فوجدت زوجتى قد ابيض وجهها من الهلع والخوف، وهدانى الله أخيرًا للصواب فقلت لها إنها فى بيتى وأخلاقى لا تسمح لى بطردها، لهذا فإننى أنا الذى سأغادر البيت وأتركه لها، وجمعت ملابسى استعدادًا للخروج فوجدتها تطالب زوجتى بانفعال بأن تجمع ملابسها هى الأخرى لتترك لى هذه «الخرابة»، ولأول مرة أجد زوجتى ترفض طلبًا لأمها بإصرار، غير مبالية بغضبها فترفض مغادرة البيت، وتخيرها هى بين البقاء معها إذا أرادت أو العودة لبيتها، أما هى فلن تغادر بيت زوجها، وسوف تنتظر عودته حين تهدأ نفسه من هذه الإهانة، وساعدتنى فى جمع الملابس وهى تبكى وترجونى

ألاَّ أغضب، وألاَّ أطيل غيبتى عنها وعن ابنى، وترى أمها ذلك فتنتابها حالة عصبية غريبة لم أشهدها عليها من قبل، فتصرخ وتبكى وترتعش وتنهال بالكلمات الجارحة على ابنتها «الخائنة» التى باعتها من أجل زوجها، ولم آبه لها وقبلت زوجتى وطفلى الوليد وخرجت، بعد أن تركت لها معظم ما كان معى من نقود.

وعدت إلى بيت أمى، فهل تعرف ماذا فعلت والدتها؟

لقد «عسكرت» فى بيتى، ورفضت مغادرته خوفًا من رجوعى إلى زوجتى فى غيبتها، وخرجت على كل عرف سابق لها فزعمت لكل من اتصلوا بها أو زاروها، إنها تحرس الأثاث خوفًا من أن أستولى عليه سامحها الله.

وقد مضت الآن ثلاثة أسابيع على مغادرتى لبيتى، ولا تزال ترفض أن تغادره، وزوجتى تتصل بى كل يوم وترجونى العودة والتحمل من جديد لفترة أخرى، لأنها لا تستطيع شيئًا مع أمها، وأنا أرفض العودة إلاَّ إذا تفضلت بالرحيل، لكنها لازالت مستمسكة «بالأرض»، وزادت على ذلك أن سمحت لنفسها بأن تطالبنى - عن طريق رسول - بطلاق ابنتها التى أحبها وتحبنى، لأننى لا أستحقها، وحين أبلغت زوجتى بذلك دهشت وقالت لى إنها لا تعرف ماذا تفعل، وإنها قد سلمت أمرها إلى الله، إن أمى وشقيقتى يطالبننى بالتنازل والعودة إكرامًا لزوجتى، التى يشفقن عليها من ظروفها ولطفلى، وأنا تعبت من الحياة ثلاثة أعوام حتى الآن تحت مجهر عين أمها الفاحص، وهى تتحفز لانتقادى والتدخل بينى

وبين زوجتى، وإثبات أننى وحش يستغل براءة ابنتها، ويدير رأسها بالكلام المعسول!

فماذا أفعل يا سيدى؟ هل أضحى بزوجتى وطفلى الوليد؟ أم أقبل نصيحة أهلى بالتنازل والعودة لهذه الحياة الغريبة؟

بعض الأمهات يتملكهن حب عظيم لأبنائهن، لكنه حب خال من الحكمة مع الأسف.

وحالة والدة زوجتك نموذج صارخ لهذا النوع المريض من الحب، الذى قد يحيل حياة الابنة الوحيدة أو الابن الوحيد إلى جحيم بسبب بسيط، هو أن الأم فى مثل هذه الحالة، يتسلط عليها وسواس الخوف من أن تهملها الابنة بعد دخول «غاز أجنبى» إلى حياتها وقلبها، فتعانى حينئذ من الوحدة والتجاهل، ويدفعها هذا الإحساس المتسلط بالخوف إلى الرغبة فى التغلغل فى حياة الابنة، حتى الأعماق السحيقة، بحيث يتعذر على هذه الابنة الاستغناء عنها ذات يوم، وتثير أعصابها - إلى حد الجنون - أية لفتة من جانب الابنة تتجه بالحب إلى شخص آخر سواها، لهذا تضيق قبل زواجها وبعده باهتمام أى إنسان بابنتها، وتتحفز لرصد أية استجابة من جانب ابنتها لهذا الاهتمام والإعجاب، وقد تدفعها الرغبة فى امتلاك هذه الابنة والاحتفاظ بها لنفسها، لكى ترعاها فى شيخوختها ووحدتها، فى بعض الحالات الأكثر تعقيداً، إلى أن تدبر الحيل لإفساد أى مشروع ارتباط لها، وينتهى الأمر بالابنة البائسة فى هذه الحالة غالبًا إلى أن تقضى حياتها بلا زواج، إلى جانب الأم التى تكون عادة قوية الشخصية ومتمتعة بكامل صحتها، فى حين تذوى الابنة

ويجف عودها ويسارع إليها الكبر قبل الأوان، وحين ترحل الأم عن الحياة فى النهاية تتركها وراءها مريضة سقيمة، بلا أمل فى الزواج.

إنها حالة معروفة فى الطب النفسى للابنة الوحيدة، التى تحبها أمها حبًا قاتلاً وتخشى انفلاتها من يديها إلى يد الرجل الذى يحبها وتحبه، وهى الحالة نفسها أيضًا مع اختلاف بسيط فى التفاصيل لما يسمونه بأبناء «الأمهات»، وهم الأبناء الوحيدون لأمهات وحيدات، تحارب أمهاتهم - خفية - فكرة زواجهم حتى لا يدعنهم للوحدة والتجاهل، وهى أيضًا حالة الغيرة القاتلة المعروفة والمسئولة عن الكراهية العميقة فى نفوس بعض الأمهات، تجاه زوجات أبنائهن أو أزواج بناتهن، والحب الذى تحمله الأم فى مثل هذه الحالة لابنها أو لابنتها، حب حقيقى لكنه ليس حكيمًا ولا صحيًا، لأن الحب الصحيح لا يعيش فى وجدان تسمم بالخوف من فقد المحبوب، فيدفع صاحبه فى سبيل الاحتفاظ بمن يحب لنفسه، للجوء إلى الكذب، وتفسير الوقائع والأحداث البسيطة تفسيراً مغرضًا، وإثارة المشكلات بينه وبين الغازى الجديد، الذى ينافسها فى نيل حبه واهتمامه، وإلى تقمص أدوار تمثيلية أحيانًا كدور المرض عند الضرورة، للتأثير على الابن المحبوب أو الابنة المحبوبة، وكل همهن فى ذلك كما يقول الطبيب النفسى الأمريكى «ادوارد سبنسر كولز» : هو أن يكن فى بؤرة اهتمام هذا المحبوب دائمًا، وأن يكن بطلات باستمرار فى مسرح الحياة، فى البيئة العائلية الصغيرة اللاتى يعشن فيها ترتبط بهن دائمًا كل القرارات وكل الأمور.

والأمهات من هذا النوع - وهن لسن كثيرات والحمد لله - يثرن لأسرهن مشكلات مرهقة ويفسدن عليها معظم أيامها بلا مبرر.

وفى حالة والدة زوجتك، فإن هناك بعض العلامات المثيرة للقلق، مثل تعمدها غير الواعى لوضع العراقيل أمام مشروع زواجك من ابنتها، لتأجيله وتأجيل مفارقة ابنتها لها إلى أقصى حد ممكن، برغم تعجلك وتعجل ابنتها للزواج، وموافقة الابنة على كل ما عرض عليها من شقق، وكذلك مثل تطوُّعها بطلب طلاق ابنتها على غير رغبة منها، وهى أخطر العلامات على وجه الإطلاق، وتعبر عن رغبتها غيره الواعية لاستعادة ابنتها من «براثن» هذا الغازى، الذى كاد يسلبها منها، لكن على الناحية الأخرى هناك علامات أخرى قد تساعد إلى حد ما فى العلاج وإصلاح الأحوال، مثل وجود ابن آخر لها، كان ينبغى أن يشغل بعض اهتمامها، وممكن أن يتحول إليه فى أية لحظة جزء من طوفان حبها لابنتها، ومثل سرعة استجابتها شبه الطفولية لأية لمسة اهتمام خاص بها، ومثل وجود أقارب لها يستطيعون التدخل والحيلولة بينها وبين محاولة تدمير حياة ابنتها الخاصة، كما يستطيعون أيضًا شغلها بعض الوقت عنها بالمناسبات الاجتماعية والزيارات.. إلخ.

وعلى أية حال فهى تحتاج إلى علاج نفسى منظَّم، يعينها على تكوين مثال أكثر سموًا للحب الأمومى، تدرك معه بالحوار العقلانى الهادئ أن الحب الصحيح ليس ملكية، بل يتطلب الثقة فى المحبوب، وحقه فى أن تكون له حياة خاصة، وأن يحب الآخرين ويحبه الآخرون، دون أن يتعارض ذلك أبدًا مع حبه للأم وحب الأم له.

لكننى أتخيَّل مدى صعوبة إقناعها بحاجتها للعلاج النفسى، فالأشخاص الغيورون إلى هذ الحد القاتل، يتسمون عادة بحدة الطبع، وضعف الأعصاب فى الوقت نفسه، وهذا يفسر تنقلهم بسهولة من الهياج الشديد والثورة، إلى الانهيار المفاجئ والبكاء والضعف خلال لحظات.

لهذا لا مفر من أن تواجه مشكلتك بنفسك بصبر طويل، وأمل فى غد أفضل بإذن الله، ولا مفر من أن تتجاوز عما حدث برغم أنك ضحيةً لكل هذه الظروف، ولايد لك فيها تمامًا كما أن زوجتك ضحية أيضًا ولا حيلة لها فى أمها، ولابد أن تتلمس الطريق لإشعار هذه السيدة بأنك لا تكرهها، ولا تحاول إبعاد ابنتها عنها، بل إنك - على عكس ما تظن - شديد الاهتمام بها وشديد «الإعجاب» أيضًا بحنوها على ابنتها وتضحيتها الثمينة من أجلها، وأجل ابنها بسعادتها الخاصة بعد رحيل زوجها، لكنك فقط تريد أن تخفف عنها بعض هذه المعاناة، وتقوم عنها ببعض واجبك فى حماية هذه الابنة العزيزة عليها وعليك، بل وحمايتها هى أيضًا لأنها عانت كثيراً حين تحملت مسئولية ولديها وحدها، ورفضت الزواج من أجلهما، وللكلمة الطيبة أثر كالسحر فى النفوس يا صديقى، فضلاً عن أنها صدقة يجزى الله عنها صاحبها.

أما زوجتك فعليها أن تحاول دائمًا غرس الطمأنينة فى نفسها، وإقناعها بأنها لا تزال «أهم إنسان فى حياتها» حتى بعد زواجها وإنجابها، وبأن حبها لها لا يقارن أبداً بحبها لك ولا لطفلها، وأنها ستظل حتى النهاية فى احتياج دائم لها مهما أنجبت من أبناء..

فالخوف عدو الحكمة والرشاد، وفى الكوميديا الإلهية لدانتى بيت شعر معبِّر يقول:

«حين يجفل الحيوان يخطئ النظر»!

وكذلك الإنسان يا صديقى.. وهذه الأم فى حالة خوف مرضى - من أن تفقد ابنتها - تدفعها لأن تخطئ النظر، وتسئ التصرف وتقسو على ابنتها، وعلى من تحب وتحيل حياتهما إلى جحيم من حيث لا تدرى، فإذا نجحتما فى غرس الاطمئنان فى نفسها، فسوف يتغير كثير من سلوكياتها معكما، ويتوازى مع هذا البرنامج المدروس لإشعارها بالطمأنينة والثقة والاهتمام والحب، برنامج آخر أكثر ضرورة لابتكار الحيل التى تشغلها وتشغل بعض اهتمامها عن الابنة المحبوبة، ومحاولة مساعدتها على اكتساب صداقات جديدة مع أمهات وحيدات مثلها، يتبادلن خبرات الحياة، فلقد لاحظت أنه لا وجود لدور الصداقة فى حياتها.

ولأنه ليس على المريض حرج فى النهاية، فلا بأس بالصفح والعودة إلى بيتك وطفلك الوليد، إكرامًا له ولزوجتك الطيبة الممزقة بين نداء دينها الذى يطالبها ببر أمها والرفق بها، مهما فعلت، وبين نداء الحياة الذى يطالبها بالحرص عليك وعلى طفلها، أعانك وأعانها الله على تحمل هذا العناء.

« الخطأ لا يبرر الخطأ أبدًا فإذا كان الزوج عابثًا فإن الاحتجاج على استهتاره لا يكون بانحدار الزوجة إلى الهاوية نفسها، التى سقط فيها، وإنما يكون بأشكال أخرى ».

أرجو أن يتَّسع لى صدرك ولا تَمَلَّ رسالتى، كما أرجو أيضًا ألاَّ تزيد عذابى بتوبيخى، فقد لمت نفسى بما فيه الكفاية، وأبدأ بأن أروى لك قصتى فأقول لك: إننى كنت طالبة بالثانوية العامة حين أحببته حُبًّا يفوق طاقة البشر، أما هو فقد كان ضابطًا شابًا صغيرًا برتبة الملازم، وقد ربط الحب البرئ بين قلبينا، فتقدم إلى خطبتى على الفور، وكانت إمكاناته المادية ضئيلة جدًّا فحذَّرنى أهلى من الفارق المادى الكبير بيننا، وكان ردى عليهم أن كل ما أريده من الدنيا هو إنسان يحبنى وأحبه ويخلص كل منا الود للآخر، وهكذا أقنعت أهلى بقبوله بعد جهد يسير، وطلبت منه أن يمهرنى «مهرًا كبيرًا» ويقدم لى «شبكة ثمينة، وقلت له إن «مهرى» هو أن يعاملنى معاملة طيبة بعد الزواج، وألاَّ يهيننى ذات يوم، أما «شبكتى» التى لا أتنازل عنها، فهى أن يعفينى من الشك والغيرة عليه، فلست أريد أن أتزوج ثم أحترق بنار الغيرة على زوجى، والشك فى إخلاصه لى كل يوم، وقد قبل بشروطى وتعهد بأدائها لى كاملة، وتزوجنا بعد خطبة استمرت ست سنوات طوالاً استغرقتها رحلة الحصول على شقة، لنبدأ بها حياتنا. وقمت أنا بتجهيز عش الأحلام من الألف إلى الياء،

وكنت منذ تخرجى أعمل لأساعد زوجى على حياتنا دون إشعاره بذلك، فمضت حياتنا فى سلام وأنجبنا ولداً ثم بنتًا، وتحققت لنا كل أحلامنا عن الحياة السعيدة، ومضت حياتنا فى هدوء وسعادة وتحمَّلت صعوبات البداية بلا شكوى، والتحق الأبناء بالمدرسة وتقدموا فى دراستهم سنة بعد سنة، حتى تقاعد زوجى من عمله الرسمى وخرج إلى الحياة المدنية، وعمل بوظيفة مناسبة براتب معقول، إلى جانب معاشه، ثم ترك زوجى هذه الوظيفة وبدأ يعمل بالأعمال الحرة، وبدأت تراوده أحلام الثراء عن طريق العمل الخاص.

ثم حدث أن تعرف إلى شخص يدير أعمال مليونير عربى، أقنعه بأنه سيشاركه فى أعمال تحقق له أرباحًا طائلة، فبدأ يلتقى به كثيراً ويصادقه ويمضى معه سهرات عديدة، بدعوى الحديث عن العمل وعقد الاتفاقات، إلخ، وبدأ كل شىء فى شخصية زوجى يتغير تغيُّراً جذريًا، فبعد أن كان يحافظ على صلاته ويتقى ربه فى حياته، أهمل صلاته وعرف طريق السهر فى الملاهى الليلية، بصحبة هذا الشخص الذى يغذى أحلامه بالعمل الكبير المربح، وبدأ لهيب الشك يحرقنى.

وفى البداية اعترضت بهدوء على خروج زوجى وحضوره لهذه السهرات، التى تضم دائمًا نساء وسيدات لا أعرف ما صلتهن بهذه الأعمال، وكان يحاول إقناعى بأنها واجبات اجتماعية لا مفر منها، لإنجاح العمل، ثم استمر زوجى على هذه الحال، وتحول شكِّى فيه إلى يقين، وبدأت أثور عليه ثورات طاحنة، وبدأت المصادمات العنيفة بينى وبينه، ورحت أذكره «بالشبكة» التى وعدنى بها، وهى ألاّ يدعنى أحترق

بنار الغيرة والشك فيه بعد الزواج، بل وقلت له أكثر من مرة إننا لسنا فى حاجة لهذا «المال» الذى يجرى وراءه عن طريق هذا الشخص المريب، وإنه سيهدم حياتنا وأسرتنا المستقرة، ولكن بلا أية فائدة.

ولم تثمر أيضًا شكواى المستمرة لأهلى ولأهله، فلقد كان الجميع يطالبونى بالصبر عليه، ويؤكدون لى أنه مادام يرجع فى النهاية إلى بيته فلا خوف عليه، لكننى لم أرض لنفسى بهذه الحياة، فأنا لم أتزوجه ولم أصبر على الفقر والحاجة معه سنوات طويلة فى بدايتنا معًا، منذ كنت طالبة بالثانوية العامة، لكى أتركه يفعل ما يشاء بعد الزواج، وتشاركنى فيه نساء أخريات، بعد أن تحسنت أحوالنا الما دية وإنما اخترته وتزوجته وصبرت على ظروفه لكى يكون لى وحدى، ولابد أن يرجع إلى سابق عهده معى وإلاَّ فلن أسكت!

وكان السؤال الذى يراودنى هو: ماذا أفعل لكى أنتقم منه انتقامًا شديدًا، ثم أعيده إلىَّ وأذكره بنفسى وبجمالى وبأنوثتى، التى تشاغل عنها بسهراته ومقابلاته وأعماله؟ وجاءنى الجواب كالفحيح من صديقة سوء لى كنت أشكو لها كثيرًا وأستشيرها فى أمرى، فأقنعتنى بأن الحل لكل ذلك هو أن أثير أنا أيضًا غيرته وشكوكه، فى أننى على علاقة بغيره من الرجال، فيترك أعماله وسهراته التى يتشاغل بها عنى ويرجع إلىَّ ويراقبنى ويتفرغ لى، لكى يستردنى قبل أن أضيع نهائيًا من يديه!

وباتفاق بينى وبين صديقة السوء هذه، بدأ أحد أقاربه وهو طالب جامعى يصغرنى بعشر سنوات، يتصل بى تليفونيًا كل يوم، فإذا أجاب

المكالمة زوجى سكت، ولم يتكلم فيتضايق زوجى ويغلق السكة لكنه يصمت ولا يعلق بشىء، وتكرر هذا الموقف عدة مرات دون رد فعل من جانب زوجى، ودون أن يسألنى عن سر هذه المكالمات، ثم اشتبكت مع زوجى فى مشادة عنيفة عما يفعله فى الخارج، وسألته عن سبب واحد يدفعه لأن يعرف امرأة غيرى، فأجابنى بضيق انظرى إلى نفسك فى المرآة تعرفى السبب!

أنظر إلى نفسى فى المرآة؟ إننى فى أوائل الثلاثين من عمرى، وعلى قدر من الجمال، أو هكذا كنت أظن فهل فقدت كل مؤهلاتى التى أحبَّها من قبل؟ وتولتنى ثورة طاغية عليه، فبدأت أجيب على مكالمات هذا الطالب، وأتحدث معه، وأسأله عن حياته وأبدى له استعدادى لمساعدته فى أى شىء يطلبه، وأشكو له زوجى وخيانته وإهماله لى إلخ. ثم همس لى أحد العاملين مع زوجى، بأنه قد تزوج عرفيًا من امرأة على علاقة بها، فجن جنونى وفقدت سيطرتى على نفسى، ورحت بكل وسيلة أحاول أن أقنع زوجى بأننى على علاقة بهذا الشاب، وأريد أن أتزوجه لكى يثور علىّ ويتشاجر معى، وأتشاجر معه ثم يبكى ويطلب منى وقف هذه العلاقة والإخلاص له، فأطلب منه أن يبادلنى إخلاصًا بإخلاص، ونعود لسيرتنا السابقة، خصوصًا وقد كنت على يقين، بأنه يسجل هذه المكالمات، لكن زوجى لم يفعل شيئًا مما توقعته منه، إنما تشاجر معى ثم طلقنى بعدها بأعصاب باردة، كأن شيئًا لم يكن بيننا طوال كل هذه السنين، وكأنه لا يربطنا أبناء؟

لقد تصوَّرت بعد الطلاق، أن جحيم الغيرة الذى استمر فى حياتى خمس سنوات، منذ تعرف زوجى إلى الشخص المريب، قد انتهى فإذا بى أكتشف أن إحساسى بأننى قد فقدت زوجى وبيتى أشد قسوة ومرارة عن كل ما تصورته من عذابٌ الغيرة والشك فى زوجى.

والآن وبعد شهور عديدة من الطلاق، أشعر بأننى قد أجرمت فى حق زوجى السابق حين أردت الانتقام منه بهذا الشاب، وإنه كان الأكرم لى أن أطلب الطلاق منه، إذا كنت قد عجزت عن احتمال تصرفاته معى وعلاقاته، والكارثة أننى لا أزال أحبه ولا أقوى على أن يدخل حياتى رجل آخر، إن من حولى ينصحوننى جميعًا بأن أنسى حياتى الماضية للأبد، وبأن أبدأ حياة جديدة مع إنسان آخر، لكننى لا أستطيع ذلك، وأريد أن أسأل زوجى السابق سؤالاً يلح علىَّ ويؤرقنى كل ليلة هو : ماذا فعلت بهذا «المال» الذى سعيت وراءه وجمعته خلال السنوات الخمس الماضية منذ انقلبت موازين حياتنا؟ سوى أن هدمت بيتك وفرقت شمل أسرتك، ودفعتنى لارتكاب حماقات لم أكن أتصور أن أرتكبها فى يوم من الأيام؟

وأسألك أنت يا سيدى : ماذا ينبغى علىَّ أن أفعل من أجل أولادى، ومن أجل نفسى التى تاهت منى فى بحر بلا قرار؟

هناك مثل روسى قديم يقول: قد يخطئ الناس أحيانًا مثلما أخطأ داود ذات مرة لكنهم لا يحزنون حزنه!

وخطؤك يا سيدتى من هذا النوع من الأخطاء، أو الخطايا التى تحتاج إلى حزن داود عليه السلام وتوبته الصادقة عنه، كما فعل نبى الله حين دخل عليه المحراب رجلان يحتكمان إليه فى خلاف واختفى الرجلان فجأة، كأنهما دخان قد تبدد فى الهواء، فأدرك داود على الفور أنهما ملكان أرسلهما إليه ربه ليعلمه درسًا، وخرَّ ساجدًا مستغفرًا ربه من خطئه فى الحكم، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه فيبكى لبكائه كل شيء فى الوجود!

نعم تحتاجين حقًّا إلى ندم داود، لكى تنالى صك الغفران عن خطئك وتزول عنك آثاره.

ومؤكد أن زوجك يحتاج إليه أكثر منك، إذا كان حقًّا قد انحرف إلى العبث والخيانة والاستهتار، خلال سعيه المحموم وراء الثروة، غير أن الخطأ لا يبرر الخطأ أبدًا يا سيدتى، ولا يشفع له، فإذا كان الزوج عابثًا فإن الاحتجاج على استهتاره لا يكون بانحدار الزجة إلى الهاوية نفسها، التى سقط فيها، وإنما يكون - كما أدركت أنت بعد فوات الأوان - بطلبها الانفصال عنه، إذا عجزت عن احتمال الحياة معه على هذا

النحو، أو إذا فقدت كل أمل فى عودته إلى الطريق القديم ذات يوم، أو إذا لم ترض بما تفعله زوجات فاضلات كثيرات حين يقمن فى حياتهن حاجزاً زجاجيًا بين تطهرهن والتزامهن الدينى والأخلاقى، وبين عبث الأزواج العابثين وخطاياهم، وهو الحاجز الذى لولا أن احتمت وراءه زوجات كثيرات لتهدمت أسر كثيرة، وتشرَّد أبناء عديدون منذ قديم الزمان، ومنطقهن فى ذلك هو أن من يعبث فإنما يعبث بنفسه، وعليه وحده إثم ما يفعل، أما هن فلن يتخلين عن قيمهن الدينية والأخلاقية ما بقيت لهن حياة، ليس خوفًا من هؤلاء العابثين، وإنما احترامًا لأنفسهن قبل كل شىء، وارتفاعًا بها فوق الدنايا، والتزامًا بقيمهن الأخلاقية والدينية اللاتى يُسألن عنها أمام خالقهن، قبل أى كائن آخر، أما «انتقامهن» ممن يخونون عهدهن فهو انتقام الإمبراطور الرومانى الحكيم «ماركوس أورليوس» الذى قال: «خير ما ننتقم به ممن أساءوا إلينا، هو ألاَّ نصبح مثلهم». وأما «عقابهن» لهم فهو عقاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى قال: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه!

هذا هو «انتقام» الزوجات والأمهات السويات، «وعقابهن» للأزواج العابثين، أمَّا الانتقام منهم بمجاراتهم فى الحضيض، الذى ينحدرون إليه، فليس سوى انتقام من النفس ومن الأبناء الأبرياء، الذين كان ينبغى أن يعتصم أحد الأبوين بحكمته ودينه، إنقاذًا لهم، مادام الطرف الآخر قد فقد شراعه، وراح يتخبط وسط الأنواء.

إنَّنى على أية حال لن أطيل فى هذا الحديث «الثقيل»، الذى لن يلقى قبولك، حتى لا أزيد معاناتك كما تقولين، لكننى سأقول لك فقط: إنك قد أخطأت فى حق نفسك، وحق أبنائك، كخطأ زوجك بانحرافه إلى دنيا العبث والاستهتار، ولقد كانت بداية الكارثة فى رفقة السوء التى أتحفتك بهذه «النصيحة» المدمرة، التى لا تكشف عن شىء إلاَّ عن المستوى الأخلاقى المتدنى لصاحبتها، ولاشك أنك لو كنت قد التمست النصيحة من أهل الفضل، لا من أهل العبث، لاختلفت نصيحتهم لك اختلافًا كليًّا عن مثل هذ الفحيح السام، ولاختلفت النتائج أيضًا، وهذه هى أهمية الصحبة الأمينة فى حياة الإنسان، ومسئولية النصيحة المخلصة أيضًا، وإن كان ذلك لا يعفيك من المسئولية قيد شعرة، فلقد تسلطت عليك أنت لا على غيرك رغبة جنونية فى الانتقام من زوجك وإيلامه، كما آلمك بعبثه واستهتاره، وتمكنت منك رغبة أخرى أشدّ خطورة فى استعادته بطريقة دفع الأزمة إلى حافة الهاوية، لكى يستشعر خطر فقدك وتحول مشاعرك عنه إلى رجل آخر، «فيكافح» لكى يستعيدك من أيدى غريمه الشاب، الذى يصغرك بعشر سنوات، وتعودان لسيرتكما الأولى فى الحياة الهادئة وكأن شرفًا لم يخدش وشيئًا لم يكن!

ولست أعرف حماقة جديرة بالاستهجان والاستنكار، أشد من هذه الحماقة.

فلقد أثبتِّ بها أنك لا تفهمين حقيقة نفسية الرجل فى مجتمعاتنا الشرقية بأسرها، وهى نفسية مركبة شديدة الحساسية تجاه خيانة الزوجة له، وشديدة التسامح إلى حد كبير فى الوقت نفسه تجاه خيانته هو نفسه

لزوجته، مع أن كلتيهما خيانة وخطيئة وإثم يسأل عنه فاعله، لكن هذه هى الحقيقة التى لابد لنا أن نعترف بها، ونتعامل معها لكى نتجنب محاذيرها، وأشواكها، فالرجل يطلب صفح زوجته عن خيانته لها، ويتوقع منها الاستجابة بغير عناء كبير، ويتعذر عليه فى الوقت نفسه أن يصفح ببعض هذا اليسر عن خيانة المرأة له، لأن خيانتها تمس شرفه وتشككه فى بنوة أبنائه، أما خيانته هو لها فإثمها عليه وحده ولا تمس شرف زوجته فى شىء، وقد يشهد لها الجميع بأنها فاضلة تنال كامل احترامهم، فى حين أن زوجها عابث ولا يحدث الشىء نفسه للرجل إن كانت الخيانة من الجانب الآخر، حتى ولو كان هو فاضلاً مستقيمًا فى حياته الشخصية!

إننى لا أدافع عن هذه التفرقة، لكننى أسجِّلها بلا دفن للرؤوس فى الرمال، لكى يعيها من قد يفكرون مثلك بطريقة دفع الأمور إلى حافة الهاوية بنفس هذه الحماقة المدمرة.

ولست أعرف فى النهاية بماذا أنصحك أن تفعلى، لإنقاذ أبنائك ونفسك، التى سقطت فى بحر الحيرة كما تقولين.. إذ ليس هناك من حل لمشكلتك - فى رأيى - سوى الزمن الكفيل وحده بتضميد الجراح، وتهدئة النفوس الثائرة، ومساعدة العقل الذى غاب خلال المحنة، وأخلى مكانه للانفعالات المدمرة، وشهوة الانتقام، وشهوة الثأر للكرامة على أن يعود لأداء دوره، والتفكير فى تحجيم الخسائر ومحاصرة الأضرار. لكن الزمن وحده لا يحل المشكلة، وإنما يمد لها فقط الأجواء الصالحة للتفكير فى مصلحة الأبناء وحساب الخسائر والأرباح.

أما العامل الأساسى الذى يضعها على طريق الحل، بعد حين، فهو حزن داود عليه السلام، وتوبته الصادقة وبكاؤه فى الليل، حتى ليبكى معه كل شىء فى الوجود من جانبك أولاً، وحبذا لو كان من جانب زوجك أيضًا.

وحين يحدث ذلك فسيكون لك فيه بداية جديدة، مع والد أبنائك من جديد، أو فى حياة أخرى!

«أقسى عقاب يوقعه الإنسان على نفسه أن يستسلم للضغوط والآلام والأفكار الحزينة. وأفضل ما يستعين به عليها الإيمان بالله، والاستمساك بإرادة الحياة، وتجاوز اللحظة المؤلمة».

أكتب إليك هذا الخطاب من لندن، المدينة الجميلة كما يقولون عنها، لكنتى لا أحس بجمالها، ولا أرى فيها إلاَّ مدينة كئيبة، فلست هنا للسياحة ولكن لأمر آخر، لن أدخل فى تفاصيله الآن، وإنما سأروى لك القصة من بدايتها.

أنا شاب عمرى 16 سنة، وبضعة شهور، ومن عائلة مستورة والحمد لله، تتكون من أبى وأمى وشقيقى الأكبر وأنا، وأبى طبيب بالقوات المسلحة، وهو طبيب ممتاز فى علمه وعمله، لكن الظروف لم تتح له الفرصة للشهرة لأنه مصاب بضعف نظر شديد، ثم منذ ثمانى سنوات بدأ يشعر بعدم القدرة على السير لفترة طويلة وبشىء من العرج أثناء المشى، وأشار عليه زملاؤه بإجراء التحاليل والأشعات على قدمه، فاكتشف الأطباء إصابته بضيق فى شريان القدم وتطلَّب علاجه سفره إلى الخارج، وبعد محاولات مضنية تقرر سفره إلى لندن، وهناك تبين أن الأمر ليس انسداداً فى الشريان الأورطى، وبدلاً من توسيع شريان صغير تم قطع جزء كبير من الشريان الأورطى، واستبدال شريان من البلاستيك به واستغرقت الجراحة سبع ساعات كاملة، عاشها أبى

على جهـاز القلب الصناعى، وقدّر الله له الحياة فعاش بعد الجراحة، ورتَّب حياته على أساس هذا الوضع الجديد، وخرج إلى المعاش المبكر، وهو فى سن الأربعين، وتعـرَّض بعـد ذلك بسنوات لجلطة فى القلب، كادت تودى بحياته مرة ثانية، لكنه نجا منها والحمد لله. . وإن لم ينج من المعاناة الأخرى مع باقى أفراد الأسرة بعد ذلك.

فأمى أيضًا مصابة بانزلاق غضروفى، يحتِّم عليها ألاَّ تعمل عملاً شاقًّا، لكن نظرًا لاعتمادنا الكلى عليها فى طعامنا وشرابنا وحياتنا، فهى مضطرة إلى القيام بكل العمل الشاق بنفسها، مع معاناتها من ارتفاع شديد فى ضغط العين. أما أخى الأكبر الشاب الذى يبلغ من العمر 19 عامًا، والذى يدرس بالسنة الأولى بكلية الطب، فقد لاحظنا عليه فجأة منذ ستة شهور، أن وزنه ينقص بطريقة غريبة، مما يحتم عليه أن يتم حقنه بالأنسولين مرتين كل يوم، مع الاستعداد لمواجهة مضاعفات المرض الأخرى شفاه الله.

وأصل بعد ذلك إلى «العبد لله» وهو أنا، فمنذ أربعة أشهر ومع بداية امتحانات النصف الأول فى الصف الثانوى الأول، وفى ليلة امتحان مادة التاريخ، شعرت فجأة بألم قاس فى القلب، ورعشة شديدة مصحوبة بدوار غريب، حتى شعرت بأنها نهايتى، وقام أبى بقياس ضغط دمى ففوجئ بارتفاع شديد فيه، مع زيادة عجيبة فى ضربات القلب، وأفتى الطبيب النوبتجى فى المستشفى، الذى نقلنى إليه أبى على الفور، بأنها ربما تكون حالة توتر وخوف من الامتحان، لكن أبى الطبيب لم يقتنع بذلك، وفى الصباح ذهبت إلى الامتحان وأنا فى غاية

التعب، وضغطى لازال مرتفعًا، حتى لا أكاد أعرف ماذا أكتب فى أوراق الإجابة. وسلمنا أمرنا لله فى الامتحان، مع مواظبتى على أدائه كل يوم، وانشغلنا بالطواف على أطباء القلب والأمراض الباطنة والضغط مازال يواصل الارتفاع، ولا يستجيب لأى دواء وانتهى الامتحان، وظهرت نتيجته وفوجئت بنجاحى فيه، ونحن لازلنا مشغولين بالفحوص والتحاليل، ومحاولة السيطرة على الضغط المرتفع، الذى كان يصل أحيانا إلى 220 على 120، بلا أية فائدة وحار الأطباء فى تشخيص حالتى، وكل طبيب نذهب إليه يشخصها تشخيصًا مختلفًا، إلى أن ذهبنا إلى طبيب ظن أبى أنه مخبول! فقد قال إنه يشك فى وجود ورم فى الغدة فوق الكلوية، وكان استنكار أبى لهذا التشخيص أنه حالة نادرة جدًا، لا تزيد نسبتها على واحد فى المليون فى حالة إصابة إحدى الغدتين بورم، وعلى واحد من بين كل خمسة ملايين، فى حالة إصابة الغدتين معًا فى وقت واحد.

لكن أبى كطبيب قرر من باب تحصيل الحاصل إجراء التحاليل على الغدتين، لاستبعاد هذا التشخيص نهائيًا من حساباته، لكى يتفرغ لمتابعة الاحتمالات الأخرى، التى تؤدى إلى التشخيص الصحيح، وأجريت التحاليل فعلاً لإفراز الغدة، فكشفت عن زيادة فى الإفراز، ولم نتزعج لذلك فقد رجح أبى أن يكون معمل التحاليل قد أخطأ فى تحليله، لكنه من باب الاطمئنان رتب لى إجراء مسح ذرى على الغدتين بالجهاز الوحيد المتوافر فى مصر، فإذا بالأشعة تكشف عن وجود ورم بالغدتين معًا وليس فى غدة واحدة! أى أننى لست الواحد فى المليون فقط، وإنما أيضًا الواحد فى «الخمسة ملايين» كذلك، الذى اختارته الأقدار لكى

يصاب بهذا المرض النادر. والحمد لله. ولست أدرى كيف تصاب الغدتان فى وقت واحد؟ وكل منهما بعيدة عن الأخرى، لكن هذه هى الحال، والأمر لله، وهذا الورم هو الذى يجعل الغدة تزيد من إفرازاتها فترفع ضغط الدم إلى هذه الدرجة الرهيبة، واستغرقتنا الصدمة المروّعة حين عرفنا ذلك لفترة عصيبة، وازدادت حياتنا التى تكدّرت بمرض أبى ثم أمى ثم شقيقى الوحيد - «شفاهم الله جميعًا» - كآبة وحزنًا، ثم أفقنا من الصدمة فبدأ أبى محاولاته المضنية لتسهيل سفرى إلى لندن لإجراء عملية إزالة للغدتين معًا.

وبعد عذاب مرير جئنا إلى لندن لكى أكرِّر رحلة أبى إليها منذ سنوات لإجراء جراحته الخطيرة، وقابلت الطبيب المعالج وهو أعظم طبيب قابلته فى حياتى، فبدأ فى فحص الأشعات والتحاليل، ثم سأل أبى عن التاريخ المرضى لأسرتى، فتبادلت مع أبى النظر الصامت والابتسامة المريرة الساخرة، ثم راح أبى يقص عليه سجل أسرتنا الحافل مع أمراض الغدد، وأضاف إليه العامل الوراثى فى حالة أمى، حيث يعانى والدها «جدى» من حالة متقدمة من السكر، وارتفاع ضغط العين إلى الحد الذى كاد بصره معه يتلاشى، وحيث تعانى والدتها «جدتى» من ورم فى الغدة النخامية، التى تتحكم فى كل الغدد الأخرى، إلى جانب السكر وارتفاع ضغط الدم، واستمع الطبيب الإنجليزى إلى أبى مندهشًا ومنزعجًا، وفكر لحظات ثم قال إنه نظرًا لهذا التاريخ المرضى الغريب للأسرة، فلابد من أن يتأكد أولاً من سلامة باقى غددى، قبل أن يفعل أى شىء آخر. ثم أدخلنى المستشفى حيث أقيم الآن فى غرفة صغيرة حتى ينتهى من إجراء تحاليله المختلفة، وأبحاثه التى قد تستغرق أسابيع وأسابيع.

ومنذ ذلك الحين يا سيدى وأنا لا أعرف مصيرى، ويزيد من اكتئابى أننى نائم طوال النهار، وحدى فى غرفة صغيرة كئيبة تشبه زنزانة السجن، لكن السجن أرحم كثيراً منها، ففى السجن تجد من يتكلم معك ويتحدث إليك، ويهوِّن عليك الوقت، أما هنا فلا يوجد أحد سوى أبى المريض، الذى يأتى كل يوم ويجلس إلى جوارى صامتًا معظم الأحيان، ويعطى كل منا للآخر ظهره ويفكر فى همومه، هو يفكر فيما آلت إليه حالنا فى أسرتنا الصغيرة، التى كانت سعيدة، وأنا أفكر فى مصيرى وفيما ستحمله لى الأيام، وحين يغادرنى أبى ويتركنى وحدى، أشعر بأننى أموت من الملل والحزن، وليس من الضغط الذى لا يزال يرتفع ولا يأبه بأى علاج، وكلما زادت علىَّ أحزانى أتذكر قول الشاعر:

ضاقتْ فلمَّا استحكَمتْ حلقاتُها فُرِجَتْ وكنتُ أظنُّها لا تفرجُ

وأتذكر قوله تعالى:

﴿وما يلقَّاها إلاَّ الذين صبروا وما يلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم﴾

صدق الله العظيم

فتهدأ نفسى قليلاً، ثم أعود إلى الاكتئاب من جديد، وكل ما أريده منك يا سيدى، ومن قرَّاء بريد الجمعة الحبيب الذى كنت أقرأه ولا أزال أقرأه فى وحدتى وغربتى هنا، هو ألاَّ يبخلوا علىَّ بالدعاء بأن أعود إلى وطنى سالمًا معافى بإذن الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

سيأتى يوم تجلس فيه إلى «زوجتك»، التى ستلتقى بها ذات يوم بعد أن تنهى دراستك وتعمل بإذن الله، وإلى أبنائك منها، وقد اقتربوا من سن الشباب، وبدأت مداركهم تتفتح لخبرة الحياة وتحدياتها، فتقدم لهم قصاصة جريدة قديمة، قد اصفرت من أثر الزمن ونشرت ذات يوم منذ 25 عامًا - أو تزيد - قصة شاب صغير حزين امتحنته الأقدار وهو فى السادسة عشرة من عمره، بمحنة مرضية مؤلمة، وسافر إلى لندن خائفًا متوجِّسًا وعاش بها بضعة أسابيع غريبًا فى بلاد غريبة، تساوره الوساوس والأحزان، ويمضى أيامه وحيدًا ملولاً مكتئبًا، فى غرفة صغيرة بمستشفى بعيد، لكن ربّه قد أعانه على أمره فصمد للمحنة بشجاعة وتجاوزها بسلام، بإيمانه بربه واستمساكه بالحياة وبالأمل فى غد أفضل يستحقه، فرجع من غربته بعد أسابيع بدت له وقتها طويلة طويلة كليل المعذبين، واستأنف حياته ودراسته فى أمان، وحقق نجاحه فى الحياة، حتى جمعته الأقدار بشريكة عمره الموعودة فكوّنا معًا أسرة صغيرة متحابة، وأنجبا أبناء متعاطفين متحابين كأبويهما.

ثم «تعترف» لأبنائك فى نهاية القصة، بأن هذا الشاب الوحيد الصغير كان أنت، وتطلب منهم أن يستعينوا على تحدّيات الحياة وآلامها بما استعنت أنت به على محنتك، من الإيمان بالله وحسن الظن به، والثقة المطمئنة فى أن «أمر المؤمن كله خير»، كما جاء فى الحديث الشريف، «إن

أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له» وتؤكد بعد ذلك إيمانك الراسخ بأن الخير آت للجميع فى نهاية الأمر، «وكل شتاء لابد صائر إلى ربيع» كما يقول الشّاعر الإنجليزى «ألفريد تنيسون» وتثبت لهم بتجربتك الشخصية أن «ما كان حزنًا مرة أصبح الآن سلامًا» كما يقول لنا الشاعر طاغور! .

سيأتى هذا اليوم بإذن الله، وسوف تشهده، وتعيشه بكل تفاصيله الجميلة إن شاء الله، ولست أرجم بالغيب حين أقول لك ذلك، ولا أتنبأ بالمستقبل وإنما استشرفه وأتطلع إليه بالأمل والدعاء والرجاء، الذى لا يخيب فى أرحم الراحمين، فتمثَّل يا صديقى دائمًا فى مخيلتك هذه الصورة الجميلة المدخرة لك فى قدر الله إن شاء الله.

واستعن بها على هواجسك ووحدتك ومللك فى غرفتك الصغيرة البعيدة، ذلك أن أقسى عقاب يوقعه الإنسان على نفسه أن يستسلم للضغوط والآلام والأفكار الحزينة، وأفضل ما يستعين به عليها هو الإيمان بالله والاستمساك بإرادة الحياة، وتجاوز اللحظة المؤلمة إلى التفكير فى الغد الأفضل الذى يستحقه، وسوف تتحقق فيه آماله بإذن الله.

لقد سئل نيلسون مانديلا زعيم جنوب إفريقيا، الذى ظلّ سجينًا 28 عامًا كاملة، لم يفقد خلالها الأمل يومًا فى الحياة، كيف احتمل سنوات السجن الكئيبة هذه؟ فأجاب: كنت كلما ضقت بوحدتى فيه وتراءى لى شبح اليأس يهددنى، تخيَّلت يوم النصر الموعود، ولحظة خروجى منتصراً إلى الحرية، فأستعيد ثقتى بنفسى وغدى، وأثمل بالصورة الجميلة التى أنتظرها بصبر وأمل فأنسى أحزانى! .

وهكذا ينبغى أن تفعل أنت أيضًا يا صديقى، فتتجاوز اللحظة المؤلمة إلى الصورة الجميلة، التى تنتظرك حين يتحول «الشتاء إلى ربيع»، وتعود لبلادك وأسرتك وأصدقائك سالمًا غانمًا معافى من كل سوء بإذن الله.

غير أنك تعانى الآن الملل والوحدة فى غربتك، ولك كل العذر فى ذلك، فنحن لا نسعد أبدًا فى المنفى، ولا فى غربة النفس والقلب عن عالمنا الخاص، بل إن الإنسان ليستشعر أحيانًا نوعًا من الرعب الخفى، حين يرى نفسه مقطوع الصلة بالعالم الذى أحبه واعتاد الحياة فيه. لهذا فإننى أستأذنك فى أن أعطى عنوان المستشفى ورقم حجرتك فيه لبعض الأصدقاء المقيمين فى لندن، لكى يزوروك ويخفِّفوا عنك وحدتك ويرعوك خلال فترة العلاج، كما أستأذنك أيضًا فى أن أعطيه لكل من يطلبه منِّى من أحباء الحياة، وأحباء بريد الجمعة، لكى يكتبوا لك بعض الكلمات التى تشعرك بأنك لست وحدك فى هذه المحنة الطارئة، ولو أنك كنت قد كتبت إلىَّ أيضًا برقم تليفون المستشفى لاتصلت بك على الفور لأطمئن عليك، وأشد من أزرك، لكنه لن يمضى يوم أو يومان على أية حال، حتى أتوصل للرقم عن طريق هؤلاء الأصدقاء المقيمين فى لندن، وسوف أتصل بك لأحييك وأترقب أخبارك السعيدة بإذن الله. كما سوف أعطى الرقم أيضًا لمن يطلبه منى من الأحباء الذين سوف يسعدهم كثيرًا أن يحيطوك بدفء مشاعرهم، وصادق دعواتهم، وأن يرجوا لك كل خير وسعادة فى حياتك إن شاء الله.

« حسنُ الظنَّ بالله من شُعب الإيمان والله - سبحانه وتعالى - لم يخلق الإنسان ليشقى، بل ليسعد بحياته، ويعمِّر الأرض، ويستمتع بما أحلَّه الله، ويعبده، ويشكره على نعمائه. قال تعالى: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ».

قرأت رسالة «الصورة الجميلة»، للشاب الصغير ابن الستة عشر عامًا المريض بمرض نادر، والذى يعانى الغربة والوحدة فى غرفته بالمستشفى فى لندن، انتظارًا للجراحة، فانهمرت دموعى تأثُّرًا بحالته وإشفاقًا عليه، وظللت أدعو الله أن يمُنَّ عليه بالشفاء، وأن يعيده لبلده وأهله وأصدقائه فيه سالمًا غانمًا، كما تمنَّى لنفسه فى ختام رسالته، ولقد أعجبنى ردك المتفائل عليه يا سيدى، «ووعدك» له بأن تكون محنته المرضية هذه مجرد ذكرى، يتذكرها بعد عشرين عامًا ويرويها لأبنائه، وهم حوله ويسترجع ذكرياتها مستفيدًا من دروسها.

والحق أنَّنا نحتاج إلى مثل هذا الرد المتفائل فى بعض الأحيان، لكى نستمسك بالحياة ونعيش من أجل شىء نحيا له.

7

فأنا سيدة أبلغ من العمر 37 عامًا، ومتزوجة منذ 11 عامًا وقد رزقنى الله بثلاثة أطفال - بنتين فى العاشرة والثامنة وولد فى السادسة - الآن - من عمره - ومنذ يوم ولادة ابنى الصغير أصبت بجلطة فى القلب، ودخلت العناية المركزة، وقضيتُ أيامًا

عصبية، ونجوت من هذه المحنة المرضية بأعجوبة، وتماثلت للشفاء ثم تكررت بعد ذلك، وفى آخر أزمة صحية مررت بأزمة قلبية حادة، مع انسداد سطحى فى الشريان التاجى، ولازمت الفراش 60 يومًا، كنت أموت ويصرخ أطفالى الصغار حولى، ويبكون، ويقفون حول فراشى، ومعهم زوجى الحنون الصبور العطوف، خائفين من أن يفقدونى فى أية لحظة، والحمد لله رب العالمين، فبفضل دعوات البشر الطيبين، وابتهالهم إلى الله سبحانه وتعالى، أكرمنى ربِّى ومنّ علىّ بالشفاء، صحيح أنَّنى لا أستطيع حتى الآن القيام بواجباتى المنزلية تجاه أسرتى الصغيرة الحبيبة، لكن الحمد لله كثيرًا على ما وصلت إليه صحتى، فأبى أيضًا مريض بالقلب وعمى كذلك، وقد كانت لى أخت شابة عمرها 26 عامًا، وكانت مخطوبة وتستعد لزفافها فاختارها الله إلى جواره بمرض القلب أيضًا - رحمها الله ومتعها بشبابها الذى حرمت منه فى الجنة إن شاء الله - ومع ذلك كله لم أيأس ولم أفقد ثقتى فى الله تعالى، وأستمسك بالحياة لأن لى من أعيش من أجلهم وهم أولادى وزوجى، ولهذا أطلب من هذا الشاب الصغير أن يأمل دائمًا فى الله خيرًا وألاَّ يفقد ثقته بربه أبدًا، فلديه من يعيش لأجلهم الآن وهم: أبوه وشقيقه وسوف ينجو من أزمته - بإذن الله - ويتزوج ويكون له أطفال صغار ملائكة يحبونه ويحبهم، ويزيدونه تعلُّقًا بالحياة كما بشرته أنت يا سيدى، وإذا كان يشكو الوحدة فى غرفته الكئيبة بالمستشفى، بعيدًا عن الأهل والأحباء، فإننى أقول له إننى أفتقدهم أنا أيضًا وأنا أعيش بالقرب منهم وفى المدينة نفسها، فدع العزيمة تقهر المرض أيها الشاب الصغير الطيب.

ودعواتى إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، أن يعفو عنك، وأن تتحقق لك «الصورة الجميلة» بكل تفاصيلها، وأرجو من صاحب هذا الباب إرسال عنوانه إلىّ لكى أكتب له، وأخفف عنه ببعض الكلمات وشكراً.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

شكرًا لك يا سيدتى على كلماتك الطيبة، وتمنياتك الصادقة لهذا الشاب الصغير، التى تستحقين مثلها من الجميع بكل تأكيد، وأود أن أطمئنك - وقراء بريد الجمعة أيضًا - إلى أنه قد غادر المستشفى، وعاد إلى بلاده بغير إجراء الجراحة المنتظرة، حيث رأى الطبيب البريطانى إرجاء التدخل الجراحى فى حالته لمدة ستة شهور، وسوف يرجع إلى لندن فى الموعد الجديد، ويجرى له الطبيب الجراحة ويعود إلى بلده وأهله وأحبائه سالمًا غانمًا إن شاء الله، وقد أذن والده الطبيب مشكورًا - كما أنبأنى بذلك أخيرًا صديق له - بإعطاء عنوانه فى القاهرة لمن يريده من قراء البريد. وأرجو ممن حصلوا على عنوانه فى المستشفى من قبل، معاودة الاتصال لإعطائهم عنوانه فى القاهرة، ليكتبوا له إذا رغبوا فى ذلك، والحق أن أحباء الحياة وبريد الجمعة، قد انهالت علىّ اتصالاتهم ورسائلهم من مصر ومن خارجها طوال الأيام الماضية، منذ نشر رسالته، وأعطينا كثيرين منهم عنوان المستشفى وكتبوا إليه عليه، كما اتصل آخرون يطلبون رقم تليفون المستشفى للاتصال به فيه، فشكرًا لهم جميعًا على مشاعرهم الكريمة، وشكرًا لك أنت يا سيدتى على رغبتك النبيلة فى التخفيف عنه.

أما عن ردى المتواضع على رسالتك، فالحق أنّنى لا أعتبره تفاؤلاً بقدر ما أعتبره نوعًا من حسن الظن بالله، والأمل الدائم فى رحمته، فحسن

الظن بالله من شعب الإيمان يا سيدتى ، كما ينبئنا ذلك الحديث الشريف، والإنسان فى حاجة دائمًا لجرعة ضرورية من التفاؤل وتوقع الخير والتعلُّق دائمًا بالأمل فى غد أفضل، لكى تعينه على مخاوفه وهواجسه شبه الغريزية من المجهول، ومن المستقبل وما تحمله له صفحاته المخبوءة. والمتشائمون لا يصنعون التقدم، ولا ينالون السعادة الحقيقية أبدًا، حتى ولو توافرت لهم كل أسبابها، إذ تشغلهم مخاوفهم وترقبهم لزوال الأسباب عن الاستمتاع بها والشكر عليها، وإذا كان الفيلسوف الألمانى المتفائل «ليبنتز» يقول فى نظريته فى التفاؤل ما معناه: إن «كل شىء على ما يرام.. وهذا العالم هو أفضل عالم يحتمل أن يكون موجودًا فى الكون»: فلست أحلِّق معه فى سماوات التفاؤل العلا إلى هذا الحد، كما إننى أيضًا لا أغوص مع المفكر الفرنسى فولتير، فى هاوية التشاؤم، حين يقول معقِّبًا على نظرية ليبنتز: «إذا كانت هذه هى خير دنيا.. فما حال العوالم الأخرى».

ولا أيضًا مع الفيلسوف الألمانى هاينى حين قال: «إن الإنسانية مريضة وليست الدنيا إلاَّ مستشفى كبير».

وإنما أؤمن فقط مع غيرى، بأن أمر المؤمن كله خير كما يقول لنا الحديث الشريف، «إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له»، وأؤمن أيضًا بخيرية الحياة والناس فى غالبيتهم العظمى، وبأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان ليشقى بل ليسعد بحياته، ويعمِّر الأرض، ويستمتع بكل ما أحله الله، ويعبد ربه ويشكره على نعمائه، كما يقول لنا أيضًا التنزيل الحكيم (ما أنزلنا عليك

القرآن لتشقى) صدق الله العظيم، وما أصدق المفكر الفرنسى مونتسكيو حين يقول لنا: «إن كل شىء فى الحياة مرتب بقصد توفير السعادة للإنسان»، وإن آلام الحياة شىء عارض يعترض طريق سعادة الإنسان الذى كرّمه ربه ونفخ فيه من روحه، وهيأ له أسباب السعادة فى الدارين. والثقة بالله وإحسان الظن به فى النهاية، يدفعان الإنسان للتمسك بالحياة، ويعينان جسمه على محاربة أسباب الفناء، وكلما ازداد ما يربط الإنسان بحياته قويت فيه إرادة الحياة، وازداد صموده للأحزان والآلام، والأطباء يلاحظون أن المرضى الذين تقوى لديهم إرادة الحياة، ويميلون للتفاؤل والاستبشار، أكثر مقاومة للمرض من غيرهم من المتشائمين والمتخاذلين والمنسحبين من الحياة.

لهذا كله فسوف تجتازين أزمتك الصحية أنت أيضًا يا سيدتى بسلام، وستعود إليك قواك التى أوهنها المرض، وستعودين للقيام بأعمالك المنزلية لأسرتك الصغيرة الحبيبة، التى تحتاج إليك، فنداء الحياة يجذبك بقوة لاسترداد صحتك، وروحك الطيبة المتفائلة بقوة ستعينك على مقاومة أسباب المرض، والوصول إلى بر الأمان بإذن الله.

« نحن نعـوِّض فى أبنائنا مـا حـرمنا منه، ونطبق معهم كل ما تعلمناه وعانيناه من دروس الحياة ».

هذه الرسالة من الرسائل القليلة، التى أفضل عدم التدخل فى صياغتها أو توضيح أفكارها، حتى لا أمس عفويتها التى تعكس صدقًا إنسانيًا غريبًا، تضعنا أمام مشاعر وأحاسيس، يندر أن نستطيع تلمُّسها أو الاقتراب منها، مالم تضع الحياة فى طريقنا من حين لآخر رسالة صادقة مؤلمة كهذه الرسالة. تقول كلمات هذه الرسالة التى شدَّت انتباهى بعنف من بين مئات الرسائل الأخرى التى تلقيتها هذا الأسبوع.

هل لو كتبت إليك ستعترف بكتابتى؟ أم تقول إننى حديث السن وصغير على ذلك؟ لا.. إننى لست كذلك، فأنا أشعر بأن عمرى مائة سنة، مع أننى طالب بمدرسة لغات إعدادية وأبلغ من العمر 14 سنة، وقد كانت لى أسرة صغيرة مكونة من أب وأم وأخت عمرها 10 سنوات، وكانت أمى دائمة الشجار مع أبى على «الصرف» وأنها تريد... وتريد... وأنا كنت أعتبر أبى مقصرًا فى حقها كثيراً، إلى أن وعيت «للأمور» بعد ذلك، وفى أحد الأيام «تخانقت» أمى معه فقال لها: هدئى نفسك فقالت له: «علشان مين؟» فقال لها: من أجل الأولاد، فقالت له: «أرميهم لك وأرتاح»! وفى الليل قالت أختى الصغيرة لأبى إنها خائفة من أمى أن «ترميها» من البلكونة، فإذا فعلت ذلك فسوف تصرخ

وتمسك فى حبل الغسيل «جامد» إلى أن ينقذها أبى ! فضمها أبى إلى صدره وطمأنها، واشتد الخلاف بعد ذلك وتدخل الأصدقاء فى الصلح.

وهدأت الحالة وعشنا بعد ذلك أسعد الأيام وجلست أمى ترسم لأبى حياته، وكيف أنه «لازم» يسافر من أجل حياة أفضل، وسافر أبى بالفعل وبدأ يرسل لنا النقود الكثيرة، وكنت أكتب له الرسائل بكل حب وحنان، إلى أن تعرَّفنا فى النادى على أسرة صغيرة مكونة من زوج وزوجة وأولاد فى سننا، وتصادقنا وأصبحنا نلتقى كل يوم صباحًا ومساءً، ونأكل مع بعضنا. وكانت ربة الأسرة هذه سيدة فاضلة تمنيت أن تكون أسرتى كأسرتها، وأن تأخذنى هذه السيدة «مثل» ابنها، ومضت فترة الصيف، ثم عرفت بقصص مختلفة تمامًا عن الواقع، والحقيقة أن والدتى قد حصلت على الطلاق من أبى وأنها قد «خُطبت» لزوج هذه السيدة الفاضلة، ولم أفهم إلاّ أننا سنكون أسرة واحدة تضمنا نحن الأولاد جميعًا، وسيكون زوج السيدة الأب لنا كلنا، خصوصًا أنه مثل زوجته الفاضلة حنون وعطوف، ويفيض مثلها حركة وشبابًا و«هزارًا» فتمنيت أن يجتمع شمل الأسرتين بسرعة، وعلمت أن هذا الحب الجديد هو قدر والدتى، وأنه أهون من أن يصيبنا مرض، وأن الله هو الذى كتب لنا ذلك، ولم أعترض بل ساعدتها على كل شىء تريده منِّى، لكن الموقف الغريب و«المفاجئ» أن السيدة الفاضلة زوجة هذا الرجل أخذت جانبًا مختلفًا تمامًا عمّا كنت أتصوره، وقاطعتنا جميعًا وكلما تقابلنا ترمينى بنظرة كالسكين تقطعنى.

أما أختى فهى لاهية وتهمها المظاهر وتضحك كثيراً، وتثير غيرتى عليها دائمًا ! واستمرت الحياة وتزوج الرجل الفاضل والدتى، ووجدت

منه حنانًا، لكن المشكلة ليست فى زوج أمى، إنما فى أمى نفسها فلقد «نقص» وزنها كثيراً، فأمى تهتم بزوجها الجديد وتقول له الكلمات نفسها التى كانت تقولها لأبى فى أوقات الهدوء، وتهتم بنفسها ولا أحس بأنها تحبنا، وتشتعل النار فىّ كلما دخلت حجرتهما، وكلما سمعت منها كلمة معينة . . إن الحيرة تقتلنى : أين أبى ولماذا ضعف أمام جبروتها وتهديدها له؟ لماذا لم يقاتل لكى يأخذنى؟ إن أبى رجل فاضل عزيز، ولم يتركنا ويسافر إلاَّ لكى نحسّن وضعنا، ولكن ها هى أمى تخرج وتتركنا بالمنزل وتسافر وتتركنا وحدنا، إننا نخدم نفسنا بنفسنا، نستيقظ صباحًا ونعد لنفسنا ما نريده، وهى نائمة مع زوجها الجديد، وأذهب إلى مدرستى فأرى السيدة الفاضلة بصحبة أولادها توصلهم للمدرسة، أى أنها لم تتخل عن توصيل أولادها للمدرسة، حتى حين يكون زوجها عندها فأين أنا؟ إننى أشعر أننى تعبان وممزق، و«طول» ما أمى «بتدلع جوزها وتهزر معاه» فلن يتركها، وطول ما السيدة الفاضلة «مراعية» أولادها فلن يتركها زوجها أيضًا . . إذن ماذا أفعل؟ إننى أريد أسرتى الصغيرة . . فالغيرة على أمى تقتلنى كل يوم، ونظرات السيدة الفاضلة لى تمزقنى، إذن أروح لمين؟ أرشدنى بكلماتك، لكن لا تنصح بالصبر فى مثل سنى هذه، وأرشدنى للمذاكرة فطريق التفوق معى، لكن الصداع يمسك برأسى طوال اليوم، وأمارس الرياضة ولكن لا فائدة فى كل ذلك.

فماذا أفعل . . هل أترك المنزل وأذهب إلى مدرسة داخلية لكى أرتاح؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول

حين يكتب الصغار عن آلامهم، تعرف على الفور أن الحياة قد أثقلت قلوبهم الصغيرة بالأحزان قبل الأوان، لكن لا بـأس يا صديقى الصغير بكل ما تحمله لنا الأيام، فهذه هى الحياة بأحزانها وأفراحها، ولابد لنا أن نتقبل همومها ومتاعبها، كما نسعد أيضًا بأوقات السعادة والصفاء فيها، لقد روت لنا رسالتك المؤلمة هذه بين ثنايا كلماتها العفوية البسيطة قصة درامية متشعبة الأطراف، عن أسرة صغيرة كانت تحيا حياتها برغم المتاعب والمضايقات، إلى أن أقنعت الأم زوجها بالسفر إلى الخارج، ليلبى لها طموحها إلى الحياة الأفضل، فاستجاب راضيًا أو راغمًا، وسافر وبدأ يرسل لأسرته ما يحقق لها الحياة الكريمة، وبدلاً من أن تسعد زوجته بذلك، وتزول كل الآلام، تعرفت خلال غيبته بأسرة صغيرة سعيدة، زوجة فاضلة حنون وزوج يفيض حركة وشبابًا و«هزارًا» كما تقول، وتصادقت الأسرتان إلى حد الامتزاج واللقاء اليومى، فلم تلبث هذه «الصداقة» أن أسفرت عن طلاق أمك من أبيك وزواجها من رب هذه الأسرة الصديقة، وتصوَّرت أنت ببراءة مشاعرك أنه لن يتغير شىء فى حياتكم سوى أن تجتمع الأسرتان والأبناء جميعًا تحت راية زوج السيدة الفاضلة، ويسعد الجميع، ففوجئت بموقف زوجته «الغريب» منكم، وبمقاطعتها لكم، وتحولت نظرات الود والحب من جانبها لك إلى نظرات قاتلة كالسكين! وأنت معذور يا صديقى فى تعجبك من «موقف»

هذه السيدة منكم، لكن الأيام ستضيف إلى خبرتك بالحياة الكثير والكثير، وستعرف حين يتقدم بك العمر أن «الكبار» لا يتعاملون مع الحياة بمثل هذا المنطق البرئ، وستفهم أسباب تحول مشاعر هذه السيدة الفاضلة تجاهكم، وستلتمس لها العذر فى ذلك، فإن كنت ألومها فى شيء فهو أنها فقط تحاسبك بنظراتها الكارهة على ما لم تفعل، ولم تكن مسئولاً عنه، ولو أنصفت لغالبت مشاعرها، ولما حرمتك من عطفها السابق، لأنك تقف معها فى خندق واحد هو خندق الضحايا، وليس خندق الجناة. . فلا تغضب منها على أية حال ولا تكرهها، فمن أقدار الصغار أن يدفعوا أحيانًا ثمن أفعال الكبار واختياراتهم فى الحياة.

أما والدتك فلومى لها بلا حدود، ليس لأنها غدرت بزوجها الذى سافر إلى الخارج ليلبى مطالبها المادية، ويحقق لها حلم الحياة الأفضل، وهدمت أسرتها الصغيرة ومزقت مشاعر طفليها بين الأبوين، ولا لأنها قد غدرت بصديقتها المقربة، واغتالت سعادتها وأمانها وتزوجت زوجها، فكل ذلك قد فات أوان الحديث فيه، وإنما ألومها وبشدة لأنها لم تتفهم حقيقة مشاعرك فى هذه السن الحرجة، حين تتعامل مع زوجها كامرأة غير بعيد عن أنظارك، فالذى لا تعرفه هو أن الأبناء خصوصًا الذكور منهم يريدون أمهم أمًا دائمًا بمشاعر الأم ورمزها المطهر، ولا يريدونها امرأة أو زوجة لأحد، حتى لو كان أباهم. لهذا فمن الإنصاف والرحمة والحرص على سلامة تكوينهم النفسى، أن تحرص دائمًا على صورتها فى مخيلتهم كأم لهم، وأن تفصل بين واجباتها

تجاههم وواجباتها تجاه زوجها، وتتخفى بعلاقتها به عن أنظارهم ومداركهم ومظانهم أيضًا، حرصًا على مشاعرهم وسلامهم النفسى.

ولقد فات أمك أن تدرك أن ابنها فى مثل هذه السن، هو رجل صغير يريد الاستئثار بأمه، وقد تتملكه مشاعر الغيرة عليها حتى تجاه أبيه، إذا استشعر منها تعاملها معه كامرأة وليس كأم، فما بالها إذا كان هذا الزوج رجلاً آخر غير أبيه؟

إن الابن فى مثل هذه السن، قد يتقبل الحياة مع أبيه فى أمان، ولو كان متزوجًا من غير أمه، وينجو سلامه النفسى من الأضرار، أكثر مما يستطيع تقبل الحياة مع أمه المتزوجة من رجل آخر، غير أبيه بما قبل سن البلوغ أو بما يقف على مشارفها، إدراكًا لمشاعر الابن تجاه أمه فى هذه السن، وهى مشاعر تختلف كثيرًا عن مشاعر الابنة التى لا تستشعر بطبيعتها الأنثوية حرجًا فى «اكتشاف» هذه الحقيقة المزعجة للابن، وهى أنها ليست أمًا فقط إنما «أنثى» أيضًا!

إننى لا أعرف إذا كنت ستستوعب حديثى هذا أم لا؟ لكننى على أية حال أتوجه به أساسًا إلى والدتك، لكى تدرك عمق الأذى النفسى الذى تستشعره أنت، حين تراها تتعامل مع زوجها كامرأة وليس كأم لك، ولكى تتحفظ فى كل ما يثير غيرتك عليها وضيقك بها، ولكى تذكرك دائمًا بأفعالها وتصرفاتها أنك مركز اهتمامها الأساسى، وليس زوجها «وفتاها الأول»، الذى تحبه وتحرص عليه وتعمل لإسعاده، وليس أى رجل آخر فى الوجود، ولكى لا تنشغل بعلاقتها بزوجها عنك وعن

أختك الصغيرة، ولا تقصر فى واجباتها معكما ولا تخرج كثيراً وتتركك‍ما للوحدة فى مثل هذه السن الخطيرة، ولكى لا تتخلى عن واجباتها معكما وتغالى فى تأديتها لكما لتعوضكما عن هدم أسرتكما الصغيرة، وحرمانكما من أبيكما.

وإليها أسوق ما قالته القصصية الأمريكية بلير فيرجسون فى القصة التى نسجتها عن واقعة حقيقية، هزت المجتمع الأمريكى منذ سنوات، هى واقعة الصبى الأمريكى الذى أقام دعوى يطلب فيها «تطليق» والديه، والانضمام إلى أسرة أخرى يجد لديها الرعاية والحب والأمان ويحمل اسمها، لأن الأب لاه عنه بحياته المضطربة، مما اضطره لإيداعه ملجأ للأيتام، والأم المنفصلةً عن أبيه مشغولة عنه بنزواتها العاطفية العديدة وتقلباتها المزاجية، ومع ذلك فقد تنبهت مشاعرها تجاه ابنها فجأة حين أرادت تلك الأسرة أن تتبناه، فرفضت بإصرار الموافقة على ذلك وطالبت بتمكينها من حضانته، فأقام هذا الصبى أول دعوى من نوعها أمام القضاء الأمريكى يطلب فيها مطلبه الغريب هذا.

فقد قالت الأم البديلة التى أحبت الصبى، ووفرت له الحب والأمان بين أبنائها: إنها تعتقد أن أمه الحقيقية تحبه كما تحب كل أم أبناءها، لكنه لا يكفى لرعاية أطفالنا أن نحبهم فقط، وإنما أيضًا أن نضع هذا الحب موضع التنفيذ، بأن نترجمه إلى أفعال وتصرفات وعطاء وتضحيات من أجلهم.

ولست أشك فى أن أمك تحبك، وتحب أختك الصغيرة، كما تحب كل أم أبناءها، لكننى أطالبها بأن تترجم هذا الحب إلى عطاء لكما، وتضحيات

صغيرة من أجلكما، لن تكلفها كثيرًا من العناء، مادامت قد عجزت عن أن تقدم لكما التضحيات الكبيرة، وتحفظ لكما أسرتكما الطبيعية.

أما أنت يا صديقى فلن أطالبك بالصبر كما تتخوف فى رسالتك، لكننى سأطالبك «بالفهم» حتى ولو كان مؤلمًا أن يطالبك الإنسان بفهم ما ليس من العدل أن تفهمه، من أسرار الحياة فى مثل سنك الصغيرة، لكن لا بأس بما جرت به المقادير.

لهذا فسوف أطالبك بأن تتجاهل كل ما يثير غيرتك على أمك، وتتجنبه وتبتعد بإرادتك أنت عنه وتتعالى عليه مدركًا - برجاحة عقلك - أنه من سنة الحياة، أن يكون لكل امرأة فى الوجود زوج تهتم به ويهتم بها، وسوف تستفيد مما يزعجك الآن، حين يتقدم بك العمر وتحقق نجاحك وتصبح لك أسرتك الصغيرة الجميلة فتحرص عليها، وتحنو على أبنائك فيها، وتحفظ عليهم عشهم الصغير، ولا تسمح لشىء ما بأن يهدمه أو ينغص سعادة أبنائك فى المستقبل. فنحن يا صديقى نعوِّض فى أبنائنا ما حرمنا منه، ونطبق معهم كل ما تعلمناه وعانيناه من دروس الحياة، وإذا كان لكل فرد فى الأسرة دوره المهم فى الحياة، فدورك فى هذه المرحلة من عمرك هو أن تنجح فى دراستك، وتحقق تفوقك لتشق طريقك وتصنع نجاحك فى المستقبل القريب بإذن الله، فركز كل تفكيرك الآن فى أداء هذا الدور، وتشاغل عن كل ما يضايقك بالاستذكار والقراءة والرياضة والصلاة، وممارسة الهوايات المفيدة واكتساب الصداقات الجديدة لأصدقاء فى مثل سنك، وفى مثل طيبة قلبك وأخلاقك الكريمة، واعتبر نفسك مسئولاً عن أختك الصغيرة، وتعامل

معها بحنان ورفق واكتب إلى أبيك وتبادل معه الرسائل والاهتمام، وإذا كنت تتساءل فى حيرة أين أنا فى كل ما يجرى حولى الآن؟ فاعلم أنك فى قلب أبيك، وأمك وأختك وزوج أمك أيضًا، وأنك شيء عزيز وغال لدى الكثيرين، لكن كل ما ينقصك هو أن تضع أمك حبها لك موضعً التنفيذ، وسوف تفعل ذلك بالتأكيد حين تتفهم مشاعرك، وستختفى كل المتاعب والآلام من حياتك قريبًا بإذن الله.

« الفضل لا يُطلب من أصحابه. وإنما يجيئ منهم طواعية ودون طلب ».

أنا يا سيدى الطرف الثالث فى الرسالة المنشورة منذ أسابيع بعنوان «الأمنية الغالية»، التى كتبتها لك فتاة طيبة بارة بأمها، تروى لك فيها أنها تستعد للزواج من شاب مستقيم ومتدين، وعلى خلق واللحاق به حيث يعمل خارج مصر، لكنها تشفق على أمها الأرملة الوحيدة من أن تتركها للوحدة بعد سفرها وزواجها، وتتمنى عليك أمنية غالية هى أن تجد لأمها شريكًا للحياة يملأ فراغ حياتها بعد زواجها، لكى تطمئن عليها وتسعد بحياتها الجديدة، بغير أن ينغصها الإشفاق على أمها من وحدتها، فأنا هذا الشاب الذى وصفته خطيبته - كرمًا منها وفضلاً - بأنه شاب مستقيم ومتدين.

وقد قرأت رسالتها فى غربتى فهزت مشاعرى، وأريد أن أقول لخطيبتى - عبر بابك الأثير - إنها قد أخطأت فى أن جعلتنى من حيث لا تقصد، طرفًا فى المشكلة التى تشفق منها على أمها بعد الزواج، وأسألها: لماذا لم تعرض على أمها الطيبة وهى التى أنفقت سنوات عمرها وشبابها فى رعايتها وتربيتها، حتى أتمَّت تعليمها الجامعى، وكانت لها الأخت والأب والأم حتى بلغت الخمسين من عمرها، لماذا لم تسألها أن تقيم معنا بعد الزواج؟ فنسعد بصحبتها وعطفها، وتجد فى صحبتنا وصحبة

ابنتها الطيبة ما يسلِّي وحدتها؟ إنني أقول لهذه الأم الطيبة إن قلبي وصدري وبيتي مفتوحة أمامها تنتظر إشارتها لكي نعيش معًا، ونستمتع بتبادل العطف والود بيننا جميعًا، فهذه الأم حين ذهبت إليها لأطلب منها يد ابنتها لم تشترط عليّ أيَّ شروط منْ أي نوع، ولم تفعل ذلك لأني ميسور الحال كما قد تتصور، وإنما لأنها إنسانة عطوف وقانعة ومتسامحة، فهل يضيق بيتي بمثل هذه الأم الطيبة؟ إنني أخالفك في الرأي لأول مرة يا سيدي، وأقول إنك قد أخطأت بموافقة خطيبتي على رغباتها، واستميحك عذرًا في أن تؤكد لخطيبتي أن زوج المستقبل لا يمانع، بل ويرحب، بأن تعيش والدتها معنا بعد الزواج؟ وكيف لا والله سبحانه وتعالى يرزقني من حيث لا أدري ولا أحتسب، حيث أقيم وأعمل، وكيف لا وهي الأم الطيبة المتسامحة، لقد أردت أن أحملك أمانة تبليغها بهذه الرسالة لأني خشيت إذا ما أبلغتها لها مباشرة أن تسئ فهمي.

أما إذا كانت رغبة الأم هي الزواج، فهذا شيء آخر، وهي وحدها التي تستطيع أن تقررها، وعلينا السمع والطاعة والمساعدة بكل السبل، على تحقيق هذه الرغبة المشروعة، لكنني خشيت فقط أن يكون تفكير ابنتها في هذه «الأمنية الغالية»، مبنيًا على فهم خاطئ لموقفي، وهو أنني لن أرحب بوالدتها الفاضلة بيننا بعد الزواج، وأردت أن أزيل هذا اللبس من ذهن خطيبتي ووالدتها.

وأبرئ ذمتي وديني منه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

لم تخطئ خطيبتك بإشفاقها على أمها من وحدتها بعد الزواج، ولا بتمنيها أن تجد لها شريكًا للحياة تطمئن إلى رعايته لأمها، وتحمله لمسئوليتها بعد مفارقتها إلى زوجها وحياتها الجديدة. كما لم أخطئ أنا أيضًا فى تأييدها فى هذه الرغبة، ومساعدتها فى تحقيقها مع تقديرى لرأيك المخالف، فطبيعة الأشياء أن تفكر الابنة البارة بأمها فى حل مشكلتها، بما تراه أكثر تلبية لاحتياجاتها النفسية والإنسانية، وبغير أن ترهق الآخرين بمشكلتها.

ومن الفضل والكرم أن تعرض أنت أن يكون الحل الملائم للمشكلة، أن تضمها معك ومع ابنتها حياة واحدة، يتبادل فيها الجميع العطف والتراحم والمودة، فالفضل لا يطلب من أصحابه يا صديقى وإنما يجىء منهم طواعية، ودون طلب، فإذا كانت خطيبتك لم تفكر فى الحل الذى تعرضه أنت، فلا لوم عليها فى ذلك ولا ملامة، وإذا كنت تعرضه بسماحة فهذا هو المتوقع والمنتظر من أمثالك، ويبقى بعد ذلك أن الكلمة الأولى والأخيرة فى حياة كل إنسان رشيد، ينبغى أن تكون له وحده، وبالتالى فأم خطيبتك وحدها هى التى يجب لها أن تختار حياتها، كما تريدها وتراها، ولا يقلل ذلك أبدًا من قيمة عرضك النبيل، ولا من استحقاقك للشكر عليه وعلى رسالتك الطيبة هذه.

« السعادة إشعاع داخلى ينفث أريجه من الداخل إلى الخارج، وليس العكس. ويتعذَّر على من يحقد على الآخرين أن يستشعر السعادة الحقيقية فى حياته، ولو أتيحت له كل أسبابها ».

أريد أن أروى لك قصتى منذ البداية البعيدة، وأن أرجع بذاكرتى إلى الوراء حين كنت طفلة فى العاشرة من عمرى، مقبولة الشكل والطبع ، لكننى نحيفة هزيلة، أمرض كثيراً لضعف فى صدرى يصيبنى بنزلات الكحة المؤلمة خمس أو ست مرات فى الصيف والشتاء، فلا أكاد أبرأ من نوبة كحة حتى تصيبنى نوبة أخرى، بسبب شدة الرطوبة التى تنفثها جدران شقة أسرتى المظلمة ليلاً ونهاراً، والتى لا تزيد على حجرة وصالة وحمام فى بيت قديم بأحد أحياء القاهرة.

وقد كنت - فى هذه الفترة من عمرى - فى نهاية المرحلة الابتدائية، أعيش مع أسرتى المكونة من أب عجوز، أجيب زميلاتى حين يسألننى عن عمله بأنه بالمعاش، وأنا لا أعرف معنى هذه الكلمة، وأم طيبة عطوف وخمس بنات وولد واحد، هو أكبر الأبناء، وكنت أذهب إلى مدرستى مرتدية مريلة بسيطة لكنها نظيفة، وحاملة حقيبة من القماش أضع فيها كتبى، وأرتدى فى قدمى الصغيرتين حذاء من البلاستيك، تشتريه لى أمى من سوق الخضار، بعشرة قروش لا غير، ويضايقنى كثيراً لأنه يلتصق مع

العرق بقدمى، ويشعرنى بالحرج بين زميلاتى، لأنه الحذاء البلاستيك الوحيد بين أحذيتهن، حتى لقد كانت أمنيتى الوحيدة فى الحياة - وأنا فى العاشرة من عمرى - هى أن تسمح ظروف أسرتى ذات يوم بشراء حذاء لى من الجلد بتسعة وتسعين قرشًا، كما كان سعره فى تلك الأيام، وأن يخلِّصنى الله من الكحة التى تنهكنى، لكن ظروف أسرتى لم تسمح لى بتحقيق هذا الحلم الجميل، فلقد كان معاش أبى من وظيفته الصغيرة ضئيلاً للغاية، وراتبه ككاتب صغير بإحدى الشركات التى عمل بها بعد المعاش، أقل من القليل، لهذا فقد كانت أسعد لحظاتى حين تعجب زميلة لى بالمدرسة بحذائى البلاستيك، لأنه فريد من نوعه، فتبادلنى به من باب التغيير ولبعض الوقت حذاءها المصنوع من الجلد، وحين كان يحدث ذلك كنت أروح وأجئ بين الناس ليروه فى قدمى وأنا فى قمة الابتهاج.

أما بعد العودة من المدرسة، فقد كنت أغادر البيت مع أختين لى حاملة صينية مملوءة بالترمس الذى صنعته أمى فى البيت لنبيعه للمارة على شاطئ النيل بقرش وبنصف قرش لمن يريد، ويومنا السعيد يأتى حين ير انا رجل طيب يدرك بفطنته حالنا، فيشترى منا كمية الترمس كلها بخمسة قروش، فأهرول إلى أمى لأعطيها القروش الخمسة التى ستكون مصروف البيت وعماده فى اليوم التالى، وتكافئنى أمى على اجتهادى بنصف قرش فأخرج لألعب فى الشارع حتى الغروب.

أما فى الإجازة فقد كنت أخرج فى الصباح مع أمى الطيبة المدبِّرة، التى حرمتها الظروف من الحصول على أية شهادة، لنشترى طعام الإفطار

للأسرة، فأراها تجلس فى الفرن البلدى لأكثر من ساعة، بين بعض النسوة المنتظرات مثلها، أن يعود إلى الفرن الخبز «الرجوع» ، الذى تباع الأرغفة الثلاثة منه بقرش، فى حين يباع الرغيف الواحد من الخبز الطازج بنصف قرش، وكان هذا الخبز الجاف الذى تبلله أمنا بالماء هو طعامنا الأساسى، مع صنفين لا ثالث لهما من أصناف الطبيخ، الخالى من اللحم هما الملوخية والبطاطس المطهوة بالصلصة، إلى جانب طبق الفول فى الصباح، فنأكل هنيئًا مريئًا ونسمع أبانا وأمنا يرددان دعاءهما اليومى أن يحفظ الله علينا نعمته.

أما فى صباح عيد الأضحى فلقد كانت أمى تصطحبنى معها إلى عمارة شاهقة بجوار حديقة الحيوان لتأخذ لحم الأضحية من إحدى الأسر الطيبة، من أهل الخير، وترجع شاكرة تدعو لهم الله أن يزيدهم من فضله، وتدعو لأبنائها بأن يصبحوا ذات يوم أهل خير مثلهم، وفى البيت يأكل أبناؤها من يديها أشهى وجبة لحم، وألذ طبق حساء فى الكون كله.

وكنت أشكر ربى كثيرًا حين أشبع، وحين يجف صدرى من الكحة الخانقة، ومضت بى الأيام فالتحقت بالمدرسة الثانوية، وازددت حياء ونظافة، وعرفت دينى أكثر فارتديت الحجاب، وسمعت من أمى قصص الأنبياء فقد كانت - برغم عدم حصولها على شهادة - موسوعة فى هذا المجال، بسبب قراءتها اليومية فى المصحف المفسر بعد صلاة الفجر، كما تحسنت ظروفى فأصبح مصروفى - وأنا طالبة بالمدرسة الثانوية - قرشين كاملين تعطيهما لى «أمى مع سندويتشات» الفول فى الصباح، فأذهب إلى المدرسة وأقف أمام «الكانتين» مترددة ماذا أشترى بهما؟ ثم أقول

لنفسى : لماذا أشترى شيئًا وقد تناولت إفطارى وشبعت والحمد لله؟ فتكون النتيجة أن أعود بهما إلى أمى فى معظم الأيام، وأعطيهما لها مرة أخرى، فأجد البيت فى حاجة ماسة إليهما! وبرغم بساطة حياتنا فلقد كانت أمى شديدة التفاؤل بالمستقبل، وتثق بربها ثقة لا حدود لها، وكثيراً ما جلست بيننا تؤكد لنا أن كلاً منّا سيصبح له فى المستقبل إن شاء الله شأن كبير، وستعمل هذه أستاذة بالجامعة، وهذا مديرًا كبيرًا، وسيكون لكل منّا شقة واسعة وأثاث جميل وسيارة، إلخ فنضحك نحن من تفاؤلها الزائد على الحد ونشفق عليها من هذه الأحلام الخيالية.

ونحن نراها تكافح كفاح الأبطال لتلبية مطالبنا، وقد أضافت إلى مصادر دخلها فى هذه الفترة بيع الحلوى فى حديقة الحيوان، وكانت تحصل على «البضاعة» الصغيرة من تاجر طيب، يعطيها لها بلا مقدم ثمن، ولا يتقاضى منها ثمنها إلاَّ بعد أن تبيعها، ومن عجب أنها كانت توزع بعضها وهى عائدة على الأطفال الفقراء، أو نراها تذهب إلى مدارسنا للتقدم بطلب إعفائنا من الرسوم المدرسية لظروفنا الاجتماعية، أو تبيع - تحت ضغط بعض الظروف الطارئة وحاجة بعضنا لشراء الملابس - بعض أوانيها النحاسية لكى توفر لنا ثمنها. ومع ذلك كله فلم تكن آثار الفقر بادية علينا فنحن جميعًا : ملابسنا نظيفة ومظهرنا مقبول فى حدود إمكاناتنا، وحتى والدنا الذى كان وقتها يقارب السبعين من عمره، ويعمل كاتبًا بسيطًا بإحدى الشركات بعد المعاش، كانت تبدو عليه الوجاهة أيضًا فيحسبه البعض مديرًا بهذه الشركة، وقد كان كل ما نستطيع أن نقدمه لأمنا هو ألاَّ نخذلها بالفشل والرسوب، فتقدمنا

جميعًا فى دراستنا، والتحق شقيقنا الوحيد بالجامعة، وخرج للعمل إلى جانب الدراسة، وبدأ يساعد أباه فى الإنفاق على شقيقاته، وبخروجه للعمل بدأت الأم الطيبة المتفائلة تستغنى عن بيع الحلوى، ثم توالت بعد ذلك التطورات فى حياتنا فتخرج شقيقنا، وعمل بالشركة نفسها التى كان يعمل بها والدنا - رحمة الله عليه - وأنفق على نفسه أيضًا فحصل على الماجستير، وتزوَّج وأنجب وسكن فى شقة جميلة بعمارة كبيرة وأصبحت له سيارة بسيطة ظريفة، كما توقعت له أمه فى أحلامها المتفائلة.

أما شقيقاته فقد تخرجن كلهن فى الجامعة، وتزوجن وأقمن فى مساكن جميلة بعمارات شاهقة، وأصبح لكل منهن سيارة وزوج فى غاية الكرم والطيبة معها، أما أنا يا سيدى.. الطفلة ذات الحذاء «البلاستيك»، فلقد أصبحت زوجة لمدير طيب يحبنى ويحب أولاده حبًّا جمًّا، وأمًّا لثلاثة أطفال صغار وبنت واحدة، وقد بلغت الآن الرابعة والثلاثين من عمرى، وأعمل أستاذة جامعية كما تنبأت لى أمى التى أصبحت جدة يلتف حولها ١٢ حفيداً تسعد بهم، وأقيم فى مسكن جميل بعمارة شاهقة، وأوزع لحم الأضاحى فى عيد الأضحى المبارك، وكلما رأيت طفلة صغيرة جاءت مع أمها لتأخذ لحم الأضحية، تذكرت نفسى، وأنا فى مثل سنها وموقفها وأمتلأ قلبى بالعطف والحب لها، ووجدت نفسى أردد قول ذلك الأعرابى الذى جاء فى الأثر أن الملائكة سمعته يردد قولاً فعجزت عن كتابته لشدة عظمته، وسعت إلى ربها تقول له: إن هذا الرجل قد قال قولاً ما ندرى كيف نكتبه، فقال رب

العزة وهو أعلم ماذا قال: قالوا: قد قال: «رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك»، فقال رب العزة لملائكته: اكتبوها كما قالها وأنا أجزيه بها».

كما أجد نفسى أيضًا أردد العبارة نفسها، كلما اصطحبت أولادى إلى حديقة الحيوان، واسترجعت فى خيالى صورة تلك الأم الطيبة ، وهى تقف فى المكان نفسه لتبيع بعض الحلوى الرخيصة، وتكسب قروشًا تعول بها أطفالها، وأرددها مرة ثالثة كلما دخلت شقتى الواسعة المضيئة التى تدخلها الشمس، وكل شىء فيها أبيض فى أبيض، من الحوائط إلى الأثاث إلى الستائر إلى أغلب ملابسى وأحذيتى، عفواً حين أقول «أحذيتى» فقد أصبح لى من فضل الله وكرمه ١٥ حذاء صالحة للاستعمال، وكلها من «الجلد» أبدلنيها ربى - له الحمد كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه - بحذائى البلاستيك القديم وأهمس بها لنفسى حين أرى من نافذة غرفة نومى، وأنا مستلقية فى فراشى قرص الشمس الأرجوانى الجميل فى الأصيل، وقرص القمر الساطع فى الليل فتمتلئ نفسى بهجة وسروراً وعرفانًا.

فإذا كان فى شقتى عيب من العيوب، فهى أنها مضيئة أكثر من اللازم، وقد نصحنى البعض بأن أضع على زجاجها ستائر داكنة، تخفف من ضوء النهار الساطع دائمًا فيها، لكننى أرفض ذلك وأفضل الستائر البيضاء، لكى أستمتع أكثر بضياء شقتى، وقد كتبت لك هذه الرسالة لا لأروى لك مشكلة أو أطلب حلاً، وإنما لأطلب منك ومن كل إنسان أنعم الله عليه بشقة ليست رطبة، وبحذاء من الجلد وبزوج طيب

أو زوجة طيبة، وأولاد صالحين وعيون ترى وآذان تسمع، وقلب لا يحقد على أحد، أطلب منه ومنكم جميعًا أن تحسوا بنعم الله عليكم، التى لا تعد ولا تحصى، وأن تقولوا معى. . ومع ذلك الأعرابى القديم، «رب لك الحمد، كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك» وشكرًا لأنك قد صبرت على قراءة رسالتى هذه. .

والسلام عليكم ورحمة الله.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

ذكرَّتني رسالتك الجميلة هذه، بكلمة المفكر الفرنسي مونتسكيو يقول فيها، «يجب أن نقنع بعض الناس بالسعادة التي يجهلونها، وقد يكونون يتمتعون بها فعلاً بغير أن يشعروا بذلك!» وأحسب أن رسالتك هذه سوف تذكِّر كثيرين ببعض أسباب السعادة، التي يتمتعون بها فعلاً بغير أن يشعروا بذلك، أو يعرفوا لها قدرها . . أو يشكروا من منحها لهم وميَّزهم بها على غيرهم، ولا يكفُّون عن الشكوى والأنين!

يا سيدتي إن السعادة إشعاع داخلي ينفث أريجه من الداخل إلى الخارج، وليس العكس، ولقد أصبت عين الحقيقة حين حددت من بين السعداء الذين تطالبينهم بأن يشكروا نعمة الله التي أنعم بها عليهم، من يحملون قلوبًا طيبة ولا يحقدون على أحد، فهؤلاء هم السعداء حقًّا مهما كانت ظروفهم غير مواتية، ذلك أنه يتعذر حقًّا وصدقًا على من يحقد على الآخرين، أن يستشعر السعادة الحقيقية في حياته، ولو أتيحت له كل أسبابها؛ وصفاء النفوس شرط أساسي لاستشعار البهجة والطمأنينة، أما الحقد فهو كفيل بإفساد أي متعة على صاحبها ولو كانت لاذعة، والتفاؤل والثقة بالله وحسن الظن به مفاتيح السعادة السحرية أيضًا. وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: ﴿أنا عند حسن ظن عبدي بي إن خيراً فخير وإن شراً فشر﴾ .

وأتصورَّ أن أمك الطيبة المكافحة كانت تستهدى إيمانها الفطرى، من حسن ظنَّها بالله، وهى تتوقع لكم وأنتم فى غمار ملحمة الكفاح والصمود لمطالب الحياة الضرورية، أن تصبحوا جميعًا أصحاب شأن فى المستقبل، وتتهيأ لكم كل ظروف الحياة المريحة، التى حرمتم منها فى طفولتكم وصباكم، فكان هذا التفاؤل بالغد أحد دوافعكم لتحقيق الذات والنجاح فى الحياة؛ غير أنَّنى أحسب أنه كان من أهم الأسباب أيضًا، تلك الفطرة السليمة وذلك الإحساس العائلى النبيل، الذى جمع بينكم جميعًا بالترابط والتعاطف والتكافل والإيثار طوال سنوات الكفاح.

فالأب لم يكف عن العمل حتى شارف السبعين، ليلبى مطالب أسرته، والأم لم تدخر وسيلة للعمل الشريف وكسب الرزق إلاَّ وقد اتبعتها، والشقيق الوحيد لم يتوان عن تحمل مسئوليته العائلية عن شقيقاته، فور أن أصبح قادراً على الكسب، فشارك أباه بعضها وهو طالب، وتحملها كلها وحده بعد تخرجه، ورحيل الأب عن الحياة وأنتن جميعًا شاركتن فى الملحمة كل بجهدها وطاقتها وبتنازلها عن مصروفها الضئيل، الذى تؤثر به أسرتها على نفسها، وبجديتها فى الدراسة والتفوق، وأهم من كل ذلك عدم تذمرها من ظروفها القاسية، وبالعرفان للأم المكافحة وللشقيق الوحيد، وبعدم الإحساس بالمرارة تجاه من يملكون ما لا تملكه، ولابد أنكم جميعًا قد شربتم هذه الروح الطيبة من أمكم المكافحة، التى كانت تدعو لأهل الخير بأن يزيدهم الله من فضله، وأن يصبح أبناؤها مثلهم فى المستقبل ممن يعطيهم ربهم فيعطون الآخرين من فضله شكراً وعرفانًا والتزامًا بقيم دينهم وتعاليمه الأصيلة.

هذا هو فى تقديرى سر نجاحكم وتوفيقكم فى حياتكم، أدامه الله لكم وأتم نعمته عليكم جميعًا، فالحقد صديق الفشل والمرارة والقعود عن الكفاح، وصفاء النفس يطلق قدرات الإنسان ويحررها من قيود فشل الروح وخور الإرادة، ويركز طاقة المرء فيما يحقق له أهدافه فى الحياة، ولا يبددها فى الإحساس بالمرارة تجاه الآخرين، وتعذيب النفس بما أتيح لهم من أسباب لم تتح له.

وبعد ظلام الليل لابد أن يأتى دائمًا ضوء النهار، لمن صبر وكافح واستمسك بإيمانه بربه وبنفسه وبحقه العادل فى السعادة.

والنفس الجميلة ترى الجمال فى كل الأشياء، وتتذوقه وتستشعر قدرة الصانع وإبداعه الأكبر فيه، والفيلسوف الألمانى ليبنتز يقول لنا إنه «ما من مرة نرى فيها أحد مصنوعات اللـــه إلاَّ ووجدناه غاية فى الكمال، ووجب علينا أن نبدى إعجابًا بجماله ودقة صنعه»، وهذا هو ما تفعلينه الآن يا سيدتى، كلما ابتهجت بضوء النهار وهو يغمر مسكنك الجميل، وبقرص الشمس الأرجوانى عند الأصيل، وبالقمر الفضى فى سماء الليل، فهنيئًا لك كل شىء فى حياتك، حتى أحذيتك الجلدية التى تذكرك بالطفلة الصغيرة ذات الحذاء البلاستيك، و «الحمد لله دائمًا حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه».

وشكرًا لك على رسالتك التى تقدم لنا صورة حقيقية لحياة كثيرين، لا يزالون يعانون مما عانيتم منه، ولا يزالون يكافحون بصبر وإيمان لنيل السعادة والأمان.

«إننا نركز أبصارنا - غالبًا - علي ما نعاني منه، ولو كان هيِّنًا بسيطًا، ونتصور أننا تعساء ونستحق الرثاء، لأن بعض وجوه حياتنا ليست علي ما يرام، ولو تناسيناها قليلاً وأدرنا أنظارنا حولنا؛ لأدركنا أن هناك من يغبطوننا عليها».

منذ سنوات وأنا أفكِّر فى الكتابة إليك، لكى أروى لك تجربتى، عسى أن يجد فيها قراؤك بعض ما يزيد خبرتهم بالحياة، وقصتى باختصار هى: أننى رجل فى الخامسة والأربعين من العمر، نشأت فى أسرة ريفية تعرف فضل احترام الوالدين، وأمضيت معظم مراحل تعليمى بعيدًا عن أسرتى التى تعيش فى قرية صغيرة. وكانت أمنيتى أن أتم تعليمى وأعود للاستقرار فى بلدتى بين أمى وأبى، لأعوضهما اغترابى الطويل عنهما، خصوصًا أمى، لكن القدر لم يمهلها لتستمتع باجتماع شمل بنيها حولها طويلاً؛ فعقب تخرجى بعام واحد، وعودة أخى من بعثة الدكتوراه فى الخارج، رحلت عن الحياة راضية عنَّا، وكأنما كانت تنتظر هذين الحدثين لتنتهى رحلتها مع الدنيا.

11 وبعد رحيل أمى - رحمها الله - وأثابها عنَّا أفضل الثواب، تزوجت من إنسانة فاضلة من أسرة صديقة لأسرتى، وأنجبت بنتًا فكانت هذه المولودة فاتحة خير كبير فى حياتى، إذ وفقنى الله إلى فرصة عمل طيِّبة بأحب أرض الله إلى الله - مكة المكرمة -

وأحببت عملى وتفانيت فيه، ووفقنى الله إلى استحداث أسلوب جديد فيه، وفر كثيراً من الجهد البشرى وحقق الجودة، فسعد به رؤسائى كثيراً وسعدت به أكثر، وأشار علىّ بعض أصدقائى بطلب مكافأة خاصة من جهة عملى، عن الجهد الكبير الذى بذلته فى تطبيق هذا الأسلوب لأول مرة، لكننى لم أفكِّر فى ذلك لأننى - كنت ولا زلت - مؤمنًا بأن جائزة الإنسان على إخلاصه لعمله، إنما تأتيه من ربه وليس من البشر، وعشت فى هذه الأيام أسعد فترات حياتى، وكأن الله قد رزقنى - بعد بداية عملى فى الخارج - بولد تفاءلت بمقدمه خيراً وتقاسم حبنا مع شقيقته، وكانت زوجتى تقضى معظم وقتها فى التدريس لهما بالبيت، حتى تفوَّقا تفوقًا كبيراً فى دراستهما، وحتى كان ابنى وهو فى الثامنة من عمره يحفظ كثيراً من سور القرآن الكريم، ويتلوها بطلاقة أمام زوارنا، ثم أصيب بنوبة برد عابرة، وظهرت عليه أعراضها المألوفة فذهبنا به للطبيب الذى أعطاه بعض المضادات الحيوية، لكن نوبة البرد كانت شديدة بعض الشيء فلم تنته أعراضها، ورأينا أن نعرضه على طبيب آخر، فكتب له دواء مختلفًا ولم تتحسن الأعراض أيضًا، ولاحظت فجأة أن ابنى يزداد شحوبًا، فبدأت لأول مرة أحس ببعض القلق عليه، وذهبت به إلى مستشفى خاص، وأجريت له فحوص وتحليلات، فقال لى الطبيب المعالج إنه يشتبه فى وجود شىء ما لا يعرفه فى بلعوم الطفل، ولابد من أخذ عينة منه لتحليلها لمعرفة هذا الشىء المجهول، وتمت العملية وأخذت العينة، وكان علىّ أن أنتظر يومين لمعرفة النتيجة، والله وحده يعلم كيف عشت هذين اليومين، ثم ذهب إلى طبيبة التحاليل وسألتها عن نتيجتها، فنظرت إلىّ صامتة لحظات ثم طلبت منى التوجه بالتحاليل للطبيب المعالج،

لأعرف منه النتائج، لكنني رجوتها أن تراجعها وتخبرني بها بنفسها، فنظرت إليّ لحظات أخرى وبدا عليها التردد، ثم قالت لي أخيراً إن هناك ورمًا في بلعوم ابني الصغير الوحيد، وخفق قلبي خفقة مؤلمة، حين سمعت هذه الكلمة المخيفة وسألتها - وأنا لا أجد صوتي - عما إذا كان حميداً أم . . ؟ فعادت للنظر إليَّ بإشفاق ثم قالت: آسفة: إنه للأسف غير حميد. . ! واستندت على ذراع صديقي حتى لا أسقط على الأرض، وجرني صديقي وهو يكاد يحملني إلى خارج المعمل، وعدت إلى بيتي فما إن دخلت حتى استقام جسمي المنحني مرة أخرى، وقلت لزوجتي متماسكًا ومتظاهراً بالاستهانة: إن الأمر بسيط للغاية ويحتاج لبعض العلاج.

وذهبت إلى الطبيب المعالج، الذى نصحني بالتوجه إلى مستشفى متخصص، وكانت الساعة الثامنة والنصف مساءً، وعيادته الخارجية تغلق أبوابها في التاسعة مساء، فقررت أن أذهب فوراً عسى أن ألحق بها قبل موعد الإغلاق، وكان ذلك من إلهام الله سبحانه وتعالى لي، فلقد وجدت طبيبًا استشاريًا مصريًا كبيراً كان يزور المستشفى لإلقاء محاضرة واحدة، ويسافر صباح اليوم التالي، فما إن رأى أطباء العيادة ابني حتى اتصلوا به في غرفته وهو يحزم حقيبته استعداداً للسفر، وأبلغوه بالحالة فنزل لرؤيتها، وقال لي بعد الفحص: إنه برغم ندرة الحالة وخطورتها، فإن الأمل في رحمة الله لا ينقطع، ونظراً لاستحالة إجراء جراحة في هذا المكان من جسمه، فسوف نبدأ على الفور علاجه بالجرعات الكيماوية، وليعنك الله على تكاليفها ويعين طفلك على تحملها!

وبدأ على الفور بإعطائه الجرعة الأولى، وسافر فى اليوم التالى تاركًا لتلاميذه فى المستشفى تعليماته باستكمال العلاج، ومهما كتبت لك يا سيدى عن مشاعرى فى هذه الفترة، فلن أستطيع أن أصف لك شعور الإنسان حين يجد نفسه فجأة فى قلب كارثة تهدده فى فلذة كبده، وفكَّرت فى الأمر قليلاً بينى وبين نفسى، وقررت أن أستفيد من المهلة المتاحة لى للاستمتاع بصحبة ابنى الوحيد، بأكبر قدر ممكن وقررت ألاَّ أفارقه لحظة، وأن أباشر معه مراحل العلاج دقيقة بدقيقة، كأنما أريد أن أشبع من رؤياه وصحبته قبل أن يحين الفراق.

وصارحت مديرى فى العمل بالمحنة التى أعيشها فقال لى - جزاه الله عنِّى كل خير - «الزم ابنك فى مراحل علاجه ولو اضطررت لأن تغيب عن العمل بالشهر، واتصل بى تليفونيًا فقط وأبلغنى بمكانك». وشكرت له موقفه النبيل منِّى الذى لا أنساه له ما حييت، وتفرغت لعلاج ابنى وصحبته فى البيت وفى المستشفى، ولم أستطع أن أخفى عن زوجتى حقيقة الحالة أكثر من ذلك، بعد أن بدأت تشك فيما يجرى حولها، وتستحلفنى أن أصدقها القول فيه، ولعلمى أنها إنسانة مؤمنة بربها فقد صارحتها بالحقيقة، وقلت لها: إن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يختبرنا أصعب اختبار، ولن يريد لنا فى النهاية - مهما كانت النتيجة - سوى الخير، فإما أن نثبت للاختبار فننال عفوه، وإما أن نرسب فيه فنبوء بالخسران، ولن يغير فشلنا من النتائج شيئًا، وتواعدنا بالدمع الغزير على أن نثبت للامتحان وننجح فيه إن شاء الله.

نوينا ذلك أو حاولنا جهد طاقتنا، أن نكون عند حسن ظن ربنا بنا.. ولست أزعم أننى قد نجحت فى ذلك، فأنا فى النهاية بشر من نسل سيدنا

آدم، حين توعدهم الشيطان بأن يقعد لهم ويأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم. . إلخ. وكان من سوء الحظ أن مدرسة ابنى ملاصقة لعملى، فكنت حين أذهب للعمل كل بضعة أيام أمر على المدرسة، وأرى الأطفال يلعبون ويلهون ويمرحون، فأستعيد صورة الراقد فى البيت عاجزاً عن الحركة، بعد أخذ الجرعة ويفح الشيطان فحيحه السام فى أذنى، وكذلك فى باطنى: فى المدرسة ألفان من التلاميذ، لماذا لم يختر الله سوى ولدك ليحدث له ما حدث؟

وماذا ارتكبت فى حياتى من ذنوب ليعاقبنى الله عليها، بهذا الاختبار الأليم؟ ثم أفيق لنفسى وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأجيب عن تساؤلى قائلاً: أو ليس هؤلاء الأطفال أبناء لآباء مثلى يسوؤهم فى فلذات أكبادهم ما يسوؤنى فى فلذة كبدى؟ وأستغفر الله كثيراً وأمضى إلى عملى داعيًا لابنى ولكل الأبناء بالسلامة من كل سوء.

وتعمدت بعد ذلك ألاَّ أنظر ناحية مدرسة ابنى، كلما مررت بها، وبدأت فى التفكير فى وسائل جديدة للعلاج، إلى جانب علاج الأطباء، وبدأت أقرأ لطفلى قبل نومه كل ليلة القرآن لفترة طويلة حتى ينام، وأضع يدى على رقبته حيث موطن الداء، وأقرأ المعوذتين داعيًا له ومبتهلاً إلى الله برجاء الشفاء، إلى جانب الفداء بذبيحة وتوزيع كثير من الصدقات.

وقطعنا عدة شهور من العلاج، استدنت خلالها لمواجهة النفقات، ثم قررت أن تعود به زوجتى إلى مصر، لعرضه على الأطباء الكبار

واستكمال العلاج فى المعهد المتخصص فى هذا المرض بالقاهرة، فكان ذلك أيضًا من توفيق الله، فلقد رأت أمه فى المعهد من الحالات ما جعلها تلهج بالحمد والشكر لله، أن كان امتحاننا فى هذه الحدود، وهدانا لاكتشاف حالة ابننا مبكرًا وقبل فوات الأوان.

واستمر العلاج، ولن أطيل فى وصف ما قاساه ابنى من عذاب وآلام خلاله، خصوصًا حين كانوا يسحبون من ظهره - بإبرة طويلة - عينة من النخاع الشوكى لتحليلها ومعرفة هل وصل إليه المرض أم لا؟ لكنه يكفى أن أقول لك إن صراخه كان يهز المبنى خلال هذه العملية، وإن عمه قد حضرها معى ذات مرة فى البلد الذى أعمل فيه، فما إن وضع الطبيب الإبرة فى ظهره وبدأ يسحب النخاع وابنى يصرخ صرخات مزلزلة، حتى سمعت صوتًا عنيفًا بجوارى والتفت وأنا أمسك ابنى فإذا بشقيقى - أكرمه الله - راقد فوق الأرض مغشيًا عليه، والطبيب يصرخ فى مساعديه بغضب غير مفهوم لإخراجه من حجرة العمليات!

وتحمَّلنا كل شيء أملاً فى الشفاء والنجاة، وازداد ابنى نحولاً وذبولاً وعزوفًا عن الطعام، حتى كانت أمه تضع له الطعام فى فمه كما يطعم الطفل الرضيع.

وفى إحدى الليالى كان نائمًا، وذهبت إلى فراشه ووضعت يدى على رأسه لأقرأ له بعض آى الذكر الحكيم كعادتى كل ليلة، وانتهيت من القراءة ورفعت يدى فإذا بخصلة من شعره تخرج فيها، فذهلت وعرفت مما قرأته فى الكتب التى جمعتها عن هذا المرض اللعين، أننا قد دخلنا فى

كارثة أخرى من نتائج العلاج، ولم تمض أيام حتى خلا رأسه من الشعر، وتحول إلى شبح صغير يمشى على ساقين لا تقويان على حمله، وضاعفت من ابتهالى لله سبحانه وتعالى، أن يمدَّنى وأمه بالقوة لتحمل المشوار حتى النهاية بغير أن تنهار، وكنت أراقب ابنى وهو ينظر إلى شكله فى المرآة، ويعجز عقله كطفل فى العاشرة من عمره عن أن يستوعب أو يفهم أسباب ما يحدث له، فأضع يدى على كتفه وأطمئنه إلى أنها حالة مؤقتة وسوف تنتهى بإذن الله، والحمد لله أنه لم يكن يعى شيئًا من خطورة حالته، لأن من أكبر أخطار هذا المرض الخطر النفسى على من يدركون ويعون تمامًا، أنهم يحاربون وحشًا ضاريًا يحاول أن يفتك بهم.

وعلى هذه الحال عشنا ثلاث سنوات كاملة، نرى ابننا يذبل أمامنا ويتألم، وكنت قد أخطرت مدير المدرسة بحالته حين انقطع فى البداية عامًا كاملاً عن الدراسة، فقال لى - أكرمه الله - إنه يعرف تفوق ابنى وسوف يعطيه درجاته التى كان سيحصل عليها لو لم يختبره الله بهذه المحنة، فنجح ابنى فى السنة الثانية الابتدائية بتقدير ممتاز، دون أن يدخل الامتحان - كما اعتاد أن ينجح كل سنة - وفى العام التالى بدأ يذهب إلى المدرسة كلما تحسنت حالته بعض الشىء وينقطع بعد أخذ الجرعة.

ثم شيئًا فشيئًا بدأ ابنى - وهو فى الحادية عشرة من عمره - يتماسك قليلاً، وبدأ شعره ينمو تدريجيًا بعد أن توقف عن تناول العلاج، فعاد للظهور بنفس لونه السابق ونعومته، ثم بدأ جسمه ينمو وطوله يزيد حتى أصبح الآن - والحمد لله - أطول منِّى، ثم أنعم الله علينا بنعمته المدخرة

عنده لنا، وأبلغنا الأطباء بأنه قد شفى شفاءً كاملاً من مرضه الخطير، وهو الآن بحمد الله ونعمته فى السنة الثانية الثانوية، يذاكر ويقرأ ويجالس، زوارنا ويذهب لمدرسته ويقوم الأطباء بإجراء فحص دورى له كل أربعة شهور فى العام الأول، من باب الاطمئنان فقط، ثم كل ستة شهور فى العام الثانى، ثم مرة كل عام بعد ذلك لمدة ثلاث سنوات قادمة، والنتائج خلال العامين الأولين اللذين مضيا سليمة تمامًا والحمد لله، ونسألك ونسأل قراءك الدعاء لنا بأن يتم الله علينا نعمته، وتنتهى فترة السنوات الثلاث الباقية بالنتيجة نفسها إن شاء الله.

ولقد أردت أن أكتب لك، لكى أسعدك وأسعد قراءك، وأبعث الأمل فى نفوسهم بإحدى التجارب التى يتعلم الإنسان منها الكثير، وجاءت نهايتها والحمد لله بأفضل ما تمنينا، ورجونا الله أن يحققه لنا، وقد كسبت من تجربتى هذه الكثير والكثير، وأوله هو أن الله سبحانه وتعالى قد أدخل السكينة والاطمئنان إلى نفسى، وأيقنت أنه قد أراد لى بهذا البلاء خيرًا، وقد عرفت أن وجه الخير الذى لم أتبينه فى بداية المحنة، هو أن أعرف أن أطماع الدنيا كلها لا تساوى قلامة ظفر، وأن صغائرها وصراعاتها لا تستحق أن نتوقف أمامها لحظة، وخرجت من المحنة وقد أسقطت كل صغائر الدنيا وأطماعها من حساباتى، بعد أن لمست غدرها المفاجئ، وعرفت أن ما قد يجمعه الإنسان فى سنين طويلة، يمكن أن يضيع منه فى لحظة واحدة، وأن الصحة ورضا الله والستر والقناعة هى الأمنيات الجديرة بأن يتمناها الإنسان لنفسه ولأسرته، وأن أفضل الدعاء هو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم: «اللهم إنى أسألك العفو

والعافية» وهو ما أدعو لك به ولكل قرائك الأكرمين، وأهم من كل ذلك أنه حتى فى أحرج اللحظات وأشقاها، ينبغى ألاَّ يفقد الإنسان أبدًا أمله فى الله.

وبالمناسبة فلقد كان من فضل هذه التجربة علىّ أيضًا، أن عرفت أن هناك من يقاسون أكثر مما قاسيناه، وبعد أن روت لى زوجتى مشاهداتها فى المعهد المتخصص فى القاهرة، دعوت بعض الأصدقاء وأنشأنا جمعية صغيرة يدفع كل منا لها ما تسمح به ظروفه، وشرفونى برئاستها والتصرف فى حصيلة ما نجمعه شهريًا لها، فتكون أسعد لحظات حياتى حين أقدم حصيلتها كل سنة إلى هذا المعهد، إسهامًا منَّا فى علاج مرضاه شفاهم الله جميعًا وعافاهم، وأريد أن أقول فى النهاية لمن امتحنهم الله فى أنفسهم، أو فى أعزائهم بهذا البلاء، إن العلم الحديث قد تقدم كثيراً فى علاج هذا المرض، وأن النتائج مرجوة النجاح بأمر الله، وكلما كان الاكتشاف مبكراً كان النجاح مؤكدًا بإذن ربهم، ودعائى لهم وللجميع بالصحة والعافية.

فإذا كان للتجربة بعد كل ذلك دروس سلبية، فلقد أدركنا بعد أن منَّ الله علينا بشفاء ابننا، أننا فى غمار هلعنا عليه، وقد وجهنا معظم اهتمامنا أنا وزوجتى له غير متنبهين إلى أن من حق شقيقته علينا أيضًا أن نعطيها من اهتمامنا، بالقدر نفسه أو بما لا يسمح لها، وقد كانت صبية صغيرة بأن تتصور - ولو فى باطنها - أننا نهتم بشقيقها أكثر منها، ولقد أدركت ابنتنا بعد أن كبرت وأصبحت طالبة جامعية، أسباب ذلك الآن، وفهمتها ولعلها التمست لنا العذر فيه، وأننى لأجد من

واجبى كأب - برغم ذلك - أن أقول لها الآن وبعد أن خرجنا من المحنة : عفواً يا ابنتى فلقد كان ما عانيناه فوق قدرتنا على تحقيق التوازن المطلوب فى توزيع الاهتمام بالعدل عليكما معًا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رسالتك يا صديقى لا تحتاج منِّى إلى تعليق طويل، فهى من الرسائل التى يقرأها الإنسان فتستغرقه من سطورها الأولى، ويتمثل وقائعها فيبتهج بالبداية المثيرة، ثم يكتئب بالمحنة وكروبها، ويضيق صدره وتتزايد مخاوفه من استحكام الأزمة وتصاعد آلامها، ثم تنفرج أساريره فينتظم تنفسه مع نهايتها السعيدة غير المتوقعة، فيضع الرسالة جانبًا ويستسلم لتأملاته مفضِّلاً الصمت على الكلام.

لقد كان هذا إحساسى وأنا أقرأ تجربتك الإنسانية، المشحونة بالآلام والآمال، وكان أول ما استدعته إلى ذهنى، بعد أن انتهيت من قراءتها هو الآية الكريمة: «وكان فضل الله عليك عظيما».

نعم فلقد كان فضله عليك عظيمًا حقًّا، وكنت جديرًا بأن تناله، أمَّا دروس المحنة التى استخلصتها منها، فصائبة كلها وحكيمة، وحرى بنا جميعًا أن نتعلمها، والفائز حقًّا هو من يكتسبها من تجارب الآخرين، بغير أن يدفع ما دفعوه من ثمن باهظ لكى يستخلصوها، لكننا فى معظم الأحيان تنطبق علينا كلمة المفكر الذى قال: من تؤلمه ضروسه يظن أن كل من لا يشكون من أسنانهم سعداء!

وهذا صحيح للأسف، لأننا نركز غالبًا أبصارنا على ما نعانى منه، ولو كان هيِّنًا بسيطًا، ونتصور أننا تعساء ونستحق الرثاء، لأن بعض

وجوه حياتنا ليست على ما يرام، أو ليست كما نحبها أن تكون، أو كما تمنيناها لأنفسنا، ولو تناسيناها قليلاً وأدرنا أنظارنا حولنا لأدركنا أن هناك من يغبطوننا على «آلام الضروس» المحتملة هذه، ويتمنون أن لو كانت اختباراتهم فى رهافة اختباراتنا ورقتها، إنها قصة قديمة جديدة، لكنها تكرر نفسها كثيرًا، وتحتاج دائمًا إلى من ينبهنا إلى غفلتنا وتهافتنا على الرثاء لأنفسنا بلا مبرر حقيقى لذلك بين حين وآخر، ولاشك أن رسالتك من هذه المنبهات المفيدة، التى نحتاج إليها كل حين، لكى نتعلم كيف نفرِّق بين ما يستحق أن نشقى من أجله، إذا فقدناه، وما لا يستحق، وبين ما يستحق أن نسعد به ونرضى عنه وما لا يستحق أن نأسى على فواته إذا فاتنا.

أما الدرس السلبى الذى تشير إليه فى ختام الرسالة، فعذركما فيه لا يحتاج إلى بيان، فإن إحساسك المرهف بالمسئولية الأبوية قد زاد من همك به، وإننى أقول لك صادقًا وعلى غير معرفة بابنتك الفاضلة، إنها لابد الآن قد أدركت كل شىء وفهمت كل الأسباب، وربما أسفت كثيرًا أيضًا لأنها لم تقدر معاناتكما - وهى صغيرة عاجزة عن الإدراك - حق تقديرها.

أما الآن فليس لكم فى قلبها سوى الإعزاز والإشفاق عليكم، من قسوة معاناتكم الطويلة السابقة، ولا عجب فى ذلك فهى فرع من شجرتك الطيبة، ومن نشأت بين أبوين فاضلين متدينين مثلك أنت وزوجتك، لابد أن تهديها فطرتها الصحيحة إلى كل ذلك بغير بيان، وما أسفك لعجزك وقت المحنة عن توزيع اهتمامك بالميزان الحساس،

بين ابنك وابنتك إلاَّ تعبيراً عن رغبتك فى تحقيق أعلى درجات العدل بينهما، حتى فى جحيم المعاناة، فثق يا صديقى فى نقاء قلب ابنتك وصفاء سريرتها، ولا تحمِّل نفسك مالا طاقة لها بـه، وأنـت لم تكد تتنفس أول نسائم الراحة بعد العناء، فلا يكلف الله نفسًا إلاَّ وسعها فى النهاية.

أما علاجك الإيمانى لابنك إلى جانب علاج الأطباء له، فلقد توقفت عنده طويلاً وأعجبت به كثيراً، لأنه لا يعترض طريق العلم، وإنما يضيف إليه علاج القلب، ولقد سئل من أوتى الهدى والعلم والفضل:

- أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به، هل يرد من قضاء الله؟

فأجاب: إنه من قدر الله. أى أن الداء والدواء كليهما من قضاء الله وقدره، فلا بأس إذن بأن يلتمس الإنسان الأسباب، ويتوسل بالوسائل، ويضيف إليها علاج القلب والروح، ويبتهل لربه كل لحظة راجيًا الشفاء.

أتم الله على ابنك الغالى نعمته، وحفظ لك ابنتك العزيزة.. وشكرًا لك على رسالتك القيمة.

« الإيمان بالله والأمل الأبدى فى رحمته، هما أعظم أسلحة الإنسان فى صراعه مع شتى أنواع الوحوش الضارية التى تحاول اغتيال حياته، وأمانه، وسعادته ».

أكتب إليك بعد قراءتى لرسالة «الشيء المجهول»، للأب الفاضل الذى يروى عن الظروف المؤلمة لمرض ابنه بالمرض اللعين، فى البلعوم، ثم شفائه وانتظاره الآن السنوات الثلاث الباقية للتأكُّد من تمام الشفاء بإذن الله، وأريد أن أحكى له قصتى لعله يجد فيها - هو وأمثاله - بعض ما يفيدهم.

فحين كان عمرى 42 عامًا، كنت أعمل طبيبًا بالبلد نفسه الذى يعمل فيه كاتب الرسالة الآن، ثم بدأت أشكو من بعض الأعراض كاحتقان الأنف وصعوبة التنفس، وآلام بسيطة بالأذن، وثقل وصداع متوسط لكن مستمر؛ فبدأت أتردد باستمرار على قسم الأنف والأذن بالمستشفى الذى أعمل به، ويصف لى زملائى الأخصائيون بعض الأدوية، ولكن بلا أى تحسن، ثم قرر الأستاذ رئيس القسم أن يجرى لى عملية استكشاف تحت تأثير المخدر الكامل، وأجريتها، فأخبرنى أنه قد وجد فى بلعومى قرحة صغيرة جدًا أرسل عينة منها للتحليل، فأثار ذلك شكوكى كطبيب، وكنت أقضى إجازة مرضية فى بيتى، فانتابنى الأرق وبعد يومين أبلغنى زميل أن الأستاذ رئيس القسم سيزورنى فى البيت، ومعه بعض

كبار الأخصائيين، فانقلب الشك عندى إلى يقين، وبرغم ذلك فما إن سمعت منهم التشخيص الحقيقى لحالتى حتى أغمى علىّ أمامهم، والتفوا حولى لإسعافى، وبعد مغادرتهم للبيت لم أنم لحظة واحدة طوال الليل أنا وزوجتى، واستسلمت للتفكير المؤلم فى المصير المجهول لأبنائى الثلاثة، وأكبرهم فى الثالثة عشرة وأصغرهم فى الثالثة من عمره، ومضت الليلة الكئيبة علىّ كأنها دهر، وفى الصباح عدت إلى عملى فأخبرنى الزملاء بتحويلى إلى المستشفى الوحيد الذى يعالج هذا المرض اللعين، وتوجهت إليه ففوجئت برفض قبولى فيه، إلاَّ بموافقة من وزير الصحة شخصيًا، ورجعت مكتئبًا وقد استقر عزمى على الاستقالة من عملى، والعودة لبلدى للعلاج فيه، مهما كانت تضحيتى المادية، وفى المساء زارنى صديق متفقه فى الدين، وعلمنى صلاة التسابيح، وأوصانى أن أصليها قبل نومى، عسى أن تخفف عنى اكتئابى ففعلت واستسلمت للنوم فى تلك الليلة، وفى الصباح ذهبت إلى عملى لأبدأ إجراءات الاستقالة، فإذا بى أجد كل الأبواب التى كانت مغلقة فى وجهى أمس قد فتحت أمامى فجأة، وإذا بمدير المستشفى يستدعينى ويبلغنى بأنه قد تحدث مع وزير الصحة بشأنى، وإذا بعميد الكلية يستدعينى ويبلغنى بالشىء نفسه، وإذا بالموافقة على علاجى بهذا المستشفى الحديث تصل إلىّ مكتوبة، وبدلاً من تقديم استقالتى، توجهت فى اليوم نفسه إلى المستشفى، واستسلمت للفحوص العديدة، وبعد انتهائها استقر رأى الأطباء على علاجى بالإشعاع، وبدأت أتردد كل يوم على هذا المستشفى بسيارتى لعمل جلسات الإشعاع، وأنا أخفى كل شىء عن أطفالى طبعًا، ثم بدأت قواى

تنهار بعد فترة من العلاج، وانخفض وزنى عشرين كيلو جرامًا، ولم أعد أقوى على قيادة السيارة للمستشفى، فبدأت أذهب إليه بسيارة الإسعاف، وأصبحت، كلما توجهت إلى غرفة الإشعاع بالمستشفى - وهى غرفة داخل غرفة مصفحة بالرصاص لعزل الإشعاع - أصاب بالغثيان فور اقترابى منها، وبعد أن يقوم الأطباء والفنيون بضبط الأجهزة فيها يخرجون منها، ويتم إغلاق بابها علىّ، فلا يبقى معى غير رب العالمين فأتوجه إليه بالدعاء أن يشفينى ويشفى كل مريض بهذا الداء العضال، وبكل داء.

ويبدأ العلاج وأنا أردد «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، يا أرحم الراحمين ارحمنا. اللهم رب الناس اذهب الباس، اشف أنت الشافى، لا شفاء إلاَّ شفاؤك». وأردد ما أحفظه من آى الذكر الحكيم، وأحسُّ بأننى سجين فى مغارة مظلمة تسد بابها صخرة، وبأن دعائى هذا واستحضار ما قدمت من خير فى حياتى، كأنها معاول تحاول زحزحة هذه الصخرة عن باب المغارة لأخرج منها، فتزداد مناجاتى لربى وأهتف: ربى أنت أعلم بأنى لم أفقد صحتى فى معصيتك، فإن شئت أن ترحم فاعطف وارحم وأنت خير الراحمين، وأظل مستغرقًا فى دعائى ومناجاتى، إلى أن ينتهى وقت الجلسة العصيب، وأغادر المغارة أو الغرفة الحصينة منهكًا، واستمر علاجى بهذه الطريقة فترة طويلة، عانيت خلالها الكثير من الآثار الجانبية للعلاج، كسقوط الشعر والألم والصعوبة الشديدة فى بلع الطعام، وعانيت ما كان أشد مرارة من ذلك، وهو استقرار الاكتئاب والقتامة فى روحى وأعماقى.

وفى هذه الفترة الكئيبة من حياتى، وفى لحظة ازدادت فيها حالتى النفسية اكتئابًا، فوجئت ذات صباح بابنتى ذات الثلاثة عشر عامًا. التى لا تعرف شيئًا عن طبيعة مرضى أو متاعبى الصحية. . تقول لى إنها قد رأت حلمًا عجيبًا لا تجد له تفسيراً، فقد رأتنى وأنا أصارع أسدًا ضاريًا فى الغابة، فظل يصارعنى طويلاً ويطرحنى أرضًا لينهشنى، وأنا أقاومه وأدفعه عنِّى بكل قوتى، إلى أن نجحت فى النهاية فى إبعاده عنى ثم قتله! وسألتنى عن تفسير هذا الحلم العجيب فإذا بدموعى تغلبنى وأحاول حبسها وإخفاءها عنها بجهد جهيد، وتعجبت معها لهذا الحلم الذى لا معنى له وأنا أدعو ربى فى باطنى: «اللهم اجعل حلمها رؤيا صالحة وبشيراً بالأمان لها ولأخوتها ولأسرتى، ثم انتهت فترة العلاج أخيراً وبدأ الألم الذى أحس به عند بلع الطعام يخف تدريجيًا ثم توقف، وبدأ شعرى ينمو من جديد ووزنى يزيد شيئًا فشيئًا، وقال لى الزملاء - كما قالوا لكاتب رسالة الشئ المجهول عن ابنه - إن العلاج قد انتهى وستبدأ فترة الملاحظة لمدة ٥ سنوات، يتم خلالها فحصى مرة كل عام فى السنوات الثلاث الباقية، وإنه حين تمضى هذه الفترة بسلام يكون الشفاء تامًا ومؤكدًا بإذن الله.

فعشت الشهور الأولى من هذه المهلة، يفترسنى القلق والخوف من عودة الوحش الضارى، لمصارعتى من جديد، حتى تعجب من كانوا يعرفوننى قبل مرضى، ويقولون عنى إننى دائم الابتسام لرؤية هذه الملامح الكئيبة المستقرة فى وجهى، وأخيراً أذن الله لعبده بالخروج من مغارة الخوف والقلق المظلمة، وتزحزحت الصخرة الثقيلة تدريجيًا عن

بابها، وانتهت فترة السنوات الخمس الأولى بسلام وأمان، والحمد لله. ثم انتهت فترة السنوات الخمس الثانية بسلام أيضًا، والشكر والفضل لله رب العالمين. وأوشكت فترة الخمس الثالثة على الانتهاء قريبًا أيضًا بإذن الله، ولا زلت أتابع الفحص الدورى مرة كل عام، ولم أعد أشكو شيئًا إلاَّ بعض جفاف فى الفم والحلق من الآثار الجانبية للعلاج بالإشعاع، ومن بعض الصعوبة فى بلع الطعام الجاف أو الصلب، ولكن «البركة» فى وجبة الملوخية التى تسهل بلع كل شىء والحمد لله كثيرًا، وسبحانه بكرة وأصيلاً، وقد أردت أن أروى قصتى هذه للأب كاتب رسالة «الشىء المجهول» لأطمئنه إلى أن فترة السنوات الخمس الأولى ستمر بخير وبسلام بإذن الله، على ولده الغالى، وستمر بعدها فترة ثانية وثالثة وعاشرة وعشرون، وابنه فى أتم صحة وعافية إن شاء الله فليطمئن، وليطمئن معه كل المعذبين بهذا المرض العضال، أو بالخوف منه فلقد تقدَّم الطب كثيرًا فى مصارعته، «والله خيرٌ حافظًا وهو أرحمُ الراحمين» والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هناك شيء ما في طبيعة كل إنسان، يدفعه للتشبث بالحياة والتعلُّق بأهدابها حتى اللحظة الأخيرة منها، فللحياة كما قال صادقًا الأديب الألماني العظيم «توماس مان» (قيمة سحرية غامضة)، والخليفة الزاهد الورع المبشر بالجنة عمر بن الخطاب نفسه قد قال وهو يتردد بين الصحو والغيبوبة في لحظاته الأخيرة - متعجبًا من نفسه - إن للحياة نصيبًا من القلب، وإن للموت لوحشة!

والحياة تكتسب جزءًا كبيرًا من قيمتها - في رأى توماس مان - من أنها محدودة بفترة معينة، مهما طالت فهي قصيرة بالنسبة لعمر الأشياء، ولعلها لو كانت حياة سرمدية بلا نهاية لفقدت قيمتها والدافع الذاتي للدفاع عنها والتشبث بها.

والإيمان بالله والأمل الأبدي في رحمته، هما أعظم أسلحة الإنسان في صراعه مع جميع أنواع الوحوش الضارية، التي تحاول اغتيال حياته وأمانه وسعادته، واليأس ورفع الراية البيضاء أمامها هما أسرع الطرق لفناء الإنسان وشقائه، وإذا كنا نسلِّم جميعًا بأنه لا أحد يستطيع أن يضيف إلى عمره بضعة أعوام زائدة، ولا حتى بضع ساعات، فإنه من الأفضل للإنسان دائمًا أن يعيش عامًا واحدًا سعيدًا، من أن يعيش مائة عام معذَّبًا باليأس والقنوط من أي أمل في السعادة وبلوغ الأهداف.

ولهذا فمن واجب الإنسان دائمًا أن يستنفر كل قدراته على مقاومة الأخطار، التى تهدد حياته وسعادته وأمانه، وأن يصارعها بكل قواه، كما صارعت أنت الوحش الضارى فى رؤيا ابنتك الصادقة، وأن يتلمس كل الأسباب للانتصار فى هذا الصراع الدامى ويستعين عليه بسلاح الإيمان، وبروح الأمل والتفاؤل حتى اللحظة الأخيرة من عمره المقدور.

وبعض علماء النفس يقولون لنا الآن: إن كل الكائنات الحية تخضع لعملية التعليم المستمر، وتغيير السلوك وفقًا لمستجدات الحياة والطبيعة، لكن أقدرها على ذلك هو الإنسان الذى ميَّزه ربه بالوعى والإدراك.

« الواجب الإنسانى فوق كل اعتبار. وهو عند أهل الحق غير قابل للمناظرة مع غيره من الحلول والبدائل، لأنه يحسم كل مناقشة من البداية ».

أعرف منذ البداية أنك سوف تضيق بقصَّتى، وبى معها، وسوف تقسو علىَّ فى ردك عليها، ومع ذلك فإنَّنى أريد أن أستشيرك أنت بالذات فيها، وسأتقبل منك كل ما سوف ترد به علىَّ، وأرجو الله أن يهدينى للعمل به، فأنا يا سيدى شاب فى الثانية والثلاثين من عمرى، نشأت فى أسرة بسيطة، وتوفَّى أبى الموظف الصغير، وعمرى 12 عامًا فقط، وأختى الكبرى فى التاسعة عشرة من عمرها، وشقيقى الأصغر فى التاسعة من عمره، ولم يكن لنا سوى معاش ضئيل للغاية لا يكفى لسد رمقنا، فخرجت أختى الكبرى للعمل، وعملت مضيفة بإحدى شركات الطيران العربية، وتحمَّلت وحدها عبء الأسرة ونفقات تعليمنا، وبفضل شهامة هذه الأخت العزيزة واصلنا تعليمنا أنا وشقيقى الأصغر، والتحقت بكلية من كليات القمة، وجاء الدور على شقيقى بعدى فالتحق بكلية مماثلة، ولكن فى إحدى الجامعات الإقليمية، وانتقل إلى مدينة أخرى وأقام مع بعض أقاربنا فيها، وخلال ذلك كانت أختى قد تزوجت من إنسان فاضل يعمل بإحدى الدول العربية، أقامت معه فى مقر عمله.

13

وخلا علىّ البيت مع أمى المكافحة، التى تحملت معنا السنوات الصعبة عقب وفاة أبينا، ولم تتخل شقيقتى عن مسئوليتها عنَّا

حتى بعد الزواج، فراحت ترسل إلينا كل شهر مبلغًا يخفف عناء قسوة الحياة علينا، وحين كنت فى المدرسة الثانوية، لم يكن لى أصدقاء ولا صداقات، ولم أكن أعرف من الحياة سوى المدرسة وأسرتى الصغيرة، التى تعولها شقيقتى الكبرى، وبعض أماكن العمل الذى أخرج إليه فى الصيف لأكسب بعض الرزق، وأستعين به على نفقات دراستى وملابسى خلال العام الدراسى.

وبسبب تشابه ظروفى مع ظروف زميل لى بالمدرسة مغترب فى القاهرة مع أسرته غير المصرية، تصادقنا وتقاربنا عائليًا فهو مغترب عن بلده ويعيش مع أبويه وأخته الوحيدة، وأنا يتيم أعيش مع أمى وشقيقى الأصغر، على ما ترسله لنا شقيقتى وما أكسبه فى الصيف.

وفى وسط هذه الظروف الصعبة لاح لى أمل بعيد فى السعادة، هو شقيقة صديقى الوحيد، التى أسرتنى بجمالها وشخصيتها فارتبطت بها عاطفيًّا، وأنا طالب فى الجامعة، وبدأت أحلم باستكمال المشوار معها.

ولم يكن ارتباطى بها خافيًا على أبويها وشقيقها، فلقد كانت عيونى تنطق بالحب الصامت لها، لكن ثقتهم فى أخلاقى طمأنتهم إلى أننى لا أستطيع - حتى لو أردت - أن أخرج عن حدود الحب العفيف لها، والأمل الصامت فى الزواج منها فى المستقبل، حين تتحسن ظروفى الصعبة، وتمسكت بهذا الحلم إلى النهاية، ووجدت من فتاتى ما يشجعنى على ألاَّ أفرط فيه، فهى رقيقة وتقدِّر ظروفى، وأبواها يحبانني، وأسرتنا لا تتزاور مع أسرة أخرى سواها.. ولابد للصغير أن يكبر ذات يوم ويتغلب على ظروفه القاسية، ويحقق أحلامه.

وهكذا واصلت دراستى بإصرار على النجاح والتفوق والتغلب على كل الصعاب، وفجأة انقطعت صلتنا العائلية بأسرة فتاتى، وغابت هى عن أنظارى نهائيًا، كأنما قد رحلت إلى مكان آخر؛ فلقد سافر شقيقها للدراسة فى إحدى الدول الأوروبية، ولم تعد هناك وسيلة لرؤية فتاتى إلاَّ أن تزور أمى مع أسرتها، كما كانت تفعل أو أزورها مع أمى، وفجأة توقفت فتاتى وأمها عن زيارة أمى، وانقطعت الصلة العائلية بيننا، كأننا لم نكن أقرب الأصدقاء، وأدركت أن فتاتى لابد قد خطبت وقررت أسرتها الانقطاع عنَّا لكى أفقد الأمل فيها، وتألمت لذلك كثيرًا، وبعد عام طويل عاد صديقى من الدولة التى يدرس بها، وتجددت الصلة العائلية بيننا، وعدت لرؤية فتاتى فاكتشفت أنها لم تخطب، ولم تتزوج كما توقعت، ولم أفهم سبب انقطاعها عنِّى، ومع ذلك فقد سعدت بعودة العلاقة وإن كنت قد لاحظت تغيُّرًا غامضًا فى روحها تجاهى، وكنت قد بلغت عامى الأخير بكليتى، ففاتحتها برغبتى فى الارتباط بها، وشجعتنى على التقدم إليها مؤكدة لى أن ظروفى لن تكون حائلاً دون ارتباطنا بالزواج، وفاتحت أمى برغبتى فرفضتها بإصرار، ليس اعتراضًا على فتاتى أو أسرتها، وإنما بسبب ظروفى المادية الصعبة التى لن تمكننى من الزواج فى المدى القريب.

ولم أتوقف عند هذا السبب طويلاً، فلقد كان موقف أسرة فتاتى منِّى مشجعًا وكريمًا، وتمت الخطبة، وساعدتنى أسرة خطيبتى على أمرى بأن أتاحت لى أن أعطى شقيقها الصغير درسًا خاصًا مقابل مكافأة، تقبلتها شاكرًا لأستعين بها على تحقيق أملى فى الزواج.

وكان والد فتاتى يعمل بإحدى الدول العربية، ويعود لأسرته كل صيف، وانتهت إجازته الصيفية وهم بالعودة إلى مقر عمله، فطالبنى بعقد قران ابنته لكى يطمئن عليها فى غيابه ورحبت بذلك، وأنهيت دراستى بعد شهور، وتخرجت وتسلمت عملاً على الفور، فتعجلت أسرة فتاتى الزواج برغم عدم تمكُّنى من توفير كل احتياجات الزواج، وأولها الشقة، وتزوجت فى شقة مفروشة، وعملت عملاً إضافيًا فى صيدلية فى المساء، وبدأت حياتى الزوجية مع زوجتى الجميلة، وأنا فى سن الخامسة والعشرين من عمرى، وكلى حنين إلى الحياة العائلية، بعد أن رحلت أمى عن الحياة - رحمها الله - ووجدت نفسى وحيداً فى بيت الأسرة، فإذا بى أفاجأ باستمرار الفتور الذى لاحظته على فتاتى نحوى بعد فترة الانقطاع، ولم يلبث هذا الفتور الغامض أن تحول إلى نفور صامت منِّى بلا سبب واضح، وتصوَّرت أنها مشكلات التأقلم فى فترة الزواج الأولى، وأنها لا تلبث أن تختفى بعد أن تتعمق الألفة بيننا، ويعتاد كل منا على طبع الآخر، لكنها لم تختف كما تصورت، بل زادت حتى أحسست أن زوجتى ترفضنى ولا تطيقنى لغير ما سبب، فهى تغلق غرفتها على نفسها وتجلس وحيدة، ولا تكاد تجلس معى إلاَّ وأسرتها معنا.. والبيت مشغول باستمرار بأفراد أسرتها المغتربة، التى لا يطيق أفرادها بعاد بعضهم عن بعض.. وزوجتى لا تؤدى لى شيئًا من واجباتها تجاهى.. فلا طبخ ولا اعتناء بملابسى، ولا شىء سوى تنفيذ تعليمات وتوجيهات أسرتها، وبعد شهر واحد من الزواج حملت على غير إرادتى ورغبتى، ولكن تنفيذاً لرغبة أسرتها التى ترى فى الحمل

والإنجاب تأمينًا للحياة الزوجية، وما إن حملت حتى رفضتني كزوج باقي شهور الحمل.

وتحالفت على ظروف إحساسي المؤلم برفض زوجتي لي، مع ظروف عملي الأساسي، والإضافي، وظروف حياتي الصعبة، فأصبت بإحباط شديد، ثم وضعت زوجتي مولودها وكان طفلة، ورزقني الله مع مقدمها بعمل جديد في شركة أجنبية، فركَّزت فيه كل جهدي واهتمامي، ولم يشغلني عملي عن محاولة فهم شخصية زوجتي الشابة الجميلة، وأسباب رفضها الغامض لي، مع أن المفروض أن وراء زواجنا قصة حب قديم.

وأخيرًا اكتشفت أنها في الفترة التي انقطعت فيها عنِّي هي وأسرتها لمدة عام طويل، كان قد تقدم لها شاب ثري وسيم إمكاناته المادية كبيرة، فرحبت به وداعب ثراؤه أحلامها في أن تحيا حياة فاخرة كبنات عمها، اللاتي تزوجن من شبان أثرياء خارج مصر، لكن المشروع لم يتم لرفض والد الشاب زواجه منها، فأصيبت بإحباط شديد، واستسلمت كارهة لضغط أسرتها عليها ألاَّ تفقدني كزوج راغب فيها منذ سنوات، وينتظره مستقبل لا بأس به؛ إذا صبرت على صعوبات البداية معه.

وفي يأسها وإحباطها؛ لتحطم أحلامها السابقة بالثراء، استسلمت للضغط وعادت الصلة بيننا وشجعتني على التقدم إليها.

ووجدت نفسي بعد أقل من عامين من الزواج في فراغ عاطفي كبير، فقد أسفرت تجربة الزواج الذي حلمت به عن مجرد أعباء عائلية فقط لا غير، مع زوجة فاترة المشاعر تجاهي وشديدة العصبية معي، وترفضني

وتنفر منِّى داخليًا، خصوصًا بعد أن أنجبت طفلتنا الثانية قبل أن تتم عامين من الزواج.

ووجدت نفسى أتأمل كيف تعامل أختى زوجها، وكيف تعامل زوجات زملائى فى العمل أزواجهن، ومن دون أن أدرى وجدت نفسى أبحث عن زوجة أخرى تلبى لى احتياجاتى العاطفية والنفسية، التى لم أجدها لدى زوجتى!

جنون؟

ربما يكون كذلك، لكن هذا هو ما حدث، وما أعترف لك به. وفى هذه الفترة تعرَّفت إلى زميلة لى بالعمل، تكبرنى بسبع سنوات ومطلقة ولديها ولد وبنت فى سن المراهقة، وقد بدأ تعرفى إليها بشكواها من مطاردة مطلقها لها ومشكلاته الكثيرة معها، وبدأت تروى لى عن متاعب حياتها وتستريح إلىّ، فلم أشعر بنفسى إلاَّ وقد تزوجت هذه السيدة بعد عامين من زواجى الأول، وعمرى لا يزيد على 27 سنة، وخلال أسابيع فقط من اقترابى منها.

كيف حدث هذا؟ لا تسألنى كيف؟ فقد تطورت العلاقة بيننا سريعًا فتفاهمنا على الزواج، وتزوجنا بالفعل، وأصبح عشنا هو بيت أمها الذى انتقلت للإقامة فيه من شقة الزوجية الأولى بسبب مشكلات مطلقها.

وفوجئت بثورة عاتية ضدِّى، وبعواصف ورعود تهب علىّ من كل الاتجاهات..

فقد انفجرت فى وجهى ثورة عاتية فى عملى من رؤسائى وزملائى، على هذا الزواج الجديد، الذى لا يوافقون عليه ويعتبرونه عبثًا واستهتارًا، وأنا زوج حديث ولدىّ طفلتان فى سن الرضاعة! فصمدت لغضب رؤسائى وزملائى حتى خمد تدريجيًا مع الزمن.

وهاج مطلق زوجتى الثانية عليها وعلىّ هياجًا شديدًا، وواجهت معه متاعب لا حصر لها، وصلت إلى حد انتظاره لنا فى الشارع بجوار العمل لكى يتحرش بنا، ويعتدى علينا وصمدت لمشكلاته وتهديداته وواجهته بكل قوة حتى يأس منا نهائيًا.

وانفجرت فى وجهى ثورة أسرة زوجتى الأولى مدويَّة، وكنت قد أبلغت الأسرة من اليوم الأول لزواجى الثانى، أننى قد تزوجت مرة أخرى، متوقِّعًا أن يطلبوا منى طلاق ابنتهم، وكنت مستعدًا لتلبية مطالبهم على الفور فطالبونى بالطلاق فعلاً، ولكن ليس لابنتهم وإنما للزوجة الثانية، وقال لى أبوها فى هذا الشأن عبارة «بليغة» لم أنسها حتى الآن وهى : لقد زوجتك ابنتى وهى فرد واحد، فكيف تريد أن تعيدها إلىّ بعد عامين فقط وهى ثلاثة أفراد، وتتوقع منِّى أن أتقبل ذلك؟ أما ثورة زوجتى الأولى فهى تحتاج إلى مجلدات ومجلدات لأروى لك تفاصيلها الدامية لهذا فسوف أتجاوز عنها.

وتحملت كل الضغوط على كل الجبهات، ولم أتراجع عن خطوتى، بل وكنت مستعدًا لأن أحارب الكون كله لاستمرار زواجى بزوجتى الثانية.

وخمدت البراكين كلها تدريجيًا بعد شهور عصيبة، وسلم الجميع بالأمر الواقع، ووضعت لنفسى جدولاً أقضى فيه أربعة أيام كل أسبوع فى مسكن زوجتى الثانية، التى اشترطت عليها عدم الإنجاب حتى لا أضيف إلى أعبائى النفسية والمادية المزيد، وبدأت زوجتى الثانية تقدم لى كل ما حرمت منه فى زواجى الأول، من حب وعطف وحنان واهتمام ورعاية الزوجة لزوجها، فإذا عدت «حسب الجدول» إلى زوجتى الأولى لم أجد سوى الأعباء والمشكلات، والإصرار «اليومى» على أن أطلق زوجتى الثانية، وبنفس طويل لا تمل معه الحديث فى هذا الموضوع ولا تيأس أبدًا.

وعلى هذه الحال عشت أربع سنوات كاملة، ممَزَّقًا بين زوجتين وحياتين وأسرتين، وأتعرض للشدِّ والجذب المستمرين من كل زوجة إلى ناحيتها، حتى انقطع حبل الاحتمال عندى، وضعفت قدرتى على احتمال الحياة المزدوجة ومشكلاتها المستمرة، وازدواج الشخصية الذى فرضته علىّ ظروفى، فالأولى تضغط علىّ عصبيًا ودون لحظة يأس واحدة لكى أترك الثانية!

والثانية تضغط علىّ نفسيًا لكى يكون لنا بيت زوجية مستقل عن بيت والدتها، وشقة زواجها الأول، ولكى تشعر بالأمان معى، وقد بدأت الصورة معها تخلو من الرومانسية التى جذبتنى إليها فى البداية، وتتكشف عن مزيد من الأعباء كأى زواج آخر وتزايد الضغط علىّ، من الجانبين حتى وجدت نفسى فجأة لا أطيق كلتا الزوجتين، ولا أستطيع الاستمرار مع كلتيهما معًا، وأعانى الصداع المستمر حتى شككت فى

أمرى، وفحصت نفسى فإذا بى أكتشف إصابتى بارتفاع ضغط الدم العصبى، من كثرة ما أتحمل من ضغوط نفسية وبدأت - وأنا فى الثلاثين من عمرى - أتناول دواء الضغط بصفة مستمرة، وفى لحظة ضيق، ضقت ذرعًا بكل شىء فهجرت الاثنتين معًا، وأقمت فى شقة أختى الخالية التى تقيم فيها خلال الإجازة فى مصر منذ شهور ، واعتزلت البيتين معًا، وبدأت أراجع حياتى بعيدًا عن مؤثرات الزوجتين، وأحاول أن أختار الطريق الصحيح، فأنا ناجح فى عملى . وبرغم مشكلات حياتى الخاصة فلقد أنهيت الجزء الأول من الماجستير، وأستعد للجزء الثانى منه، وأعمل من السابعة صباحًا حتى الرابعة مساء كل يوم . . ودخلى معقول، لكننى غير سعيد فى حياتى الخاصة، ولا أجد راحتى فى كلا البيتين، فماذا أفعل بحياتى؟ لقد علمتنى دراستى أن أجد كل البدائل المتاحة لى، فكانت على الوجه التالى :

الأول: أن أعود للحياة مع زوجتى الأولى والطفلتين، وأطلق زوجتى الثانية، وقد فكرت فى ذلك فعلاً، لكننى أعرف أننى لن أكون مستريحًا نفسيًا، ولن أستطيع التعايش معها، وسأفقد «روحى» فى النهاية .

الثانى: أن أطلق زوجتى الأولى واكتفى بالحياة مع زوجتى الثانية، لكن ماذا عن الطفلتين اللتين أنجبتهما من الأولى؟ وكيف أستطيع أن أمضى فى الحياة وأنا أتحمل وزر التخلى عنهما؟ إلى جانب أن زوجتى الثانية أيضًا تكبرنى فى السن بسبع سنوات، وسوف يزداد هذا الفارق وضوحًا مع الزمن، وهذا مالم أفكر فيه جيِّدًا حين أقدمت على التجربة .

كما أن أولادها يقتربون من سن الشباب، وهم مسئولية نفسية أخرى تضاف إلى مسئوليات الحياة العائلية المزدوجة ومشكلاتها.

الثالث: أن أطلق الزوجتين معًا، وفى هذه الحالة سوف أتحمل أعباء زوجتين فاشلتين، وسوف أعجز فى المدى المنظور عن أن أبدأ حياة جديدة مع ثالثة، وأنا لا أملك نواة لتكوين هذه الحياة.

أما البديل الرابع فهو السفر إلى الخارج، مخلِّفًا ورائى آثار هاتين التجربتين الفاشلتين، وضاربًا عرض الحائط بكل شىء إنقاذًا لنفسى من المعاناة، وتأثر مستقبلى بمشكلات حياتى الخاصة.

هذه هى البدائل الأربعة التى فكرت فيها طويلاً، طوال الشهور الماضية، ولعلك لاحظت أنها قد خلت من أى احتمال لأن يستمر الوضع على ما هو عليه، وأن أستمر فى الجمع بين الزوجتين والحياتين، والتعرض لعملية شد الحبل المستمرة بينهما، حتى كاد الحبل يعصر جسمى وروحى.

ولقد كنت أقرأ لك استنكارك لتعدد الزوجات بلا ضرورة شرعية تفرضها الظروف، وأقرأ لك دفاعك الدائم عن «أحادية الزوجة» لأنه أقرب إلى الطبيعة الإنسانية، وقد تأملت طويلاً الكلمة التى استشهدت بها فى أحد ردودك لأحد الأدباء، لا يحضرنى الآن اسمه والذى قال: إن الحب كالإيمان فيه توحيد! ولم أكن أصدق أنه من الصعب إلى هذا الحد، الذى تصوره أن يتحمل الإنسان ازدواج الشخصية، والتمزق بين زوجتين، وحياتين بغير خسائر نفسية وروحية ومادية كبيرة، إلى أن

وجدت نفسى فى أتون التجربة نفسها ، وأستطيع الآن وأنا أكتوى بنار التجربة أن أقول إن ذلك ليس صعبًا فقط كما كنت تقول ، بل إنه شبه مستحيل ، بل إننى أستطيع أن أقول أيضًا ومخلصًا إن الزواج من اثنتين هو أكبر محنة يمكن أن يتعرض لها الإنسان!

حيث يجد نفسه حائرًا بين طموحين متعارضين تمامًا لزوجتين ، لن تتحقق السعادة لإحداهما ، إلاَّ بإكراهه أو دفعه أو الإيحاء المستمر له ، بأن يتخلى عن الأخرى ليصفو لها وحدها ، وهى عملية مجهدة نفسيًا وعصبيًا ، تستنفد طاقة الإنسان العصبية والنفسية ، فلا يبقى منها ما يعينه على أن يحقق طموحه الشخصى فى الحياة والعمل ، ولا يعوضه عمَّا يفقده خلال عملية الاستنزاف المعنوية هذه ، أية لحظات صفاء أو سعادة مع إحدى الزوجتين .

إننى أعرف جيِّدًا أنك لن تتعاطف معى ، ولن تتقبل أسبابى للزواج الثانى ، لكننى مع ذلك أريد نصيحتك لى ، وأعدك أن أعمل بها ، وأريد قبل ذلك أن أقدم لكلِّ الأزواج والزوجات نصيحتى من الجحيم الذى أعيش فيه الآن ، وأن أنصح كل زوج ، بألاَّ يندفع وراء رغباته ، ويتخذ خطوة غير محسوبة كخطوة الزواج من غير زوجته ، وهو زوج وأب متصورًا بذلك أن سيحل مشكلته العاطفية أو النفسية ، وأن من حقه أن يفعل ذلك ، وأنه على حق والجميع على خطأ ، وإنها حياته وليست حياة أحد غيره ، وبالتالى فليس من حق أحد أن يتطفل عليه بنصيحة مخالفة لما يريد ، إلى آخر ما يقوله الإنسان لنفسه حين تتسلط عليه رغباته وحدها ، فلقد كنت حين أقدمت على زواجى الثانى على استعداد لأن

أقاتل الدنيا كلها لو وقفت أمامى لتردنى عما أردت، أما الآن فإننى أنظر للأمر نظرة مختلفة تمامًا، ولا أراه مسألة حياة أو موت، كما صوَّرته لنفسى وأنا واقع تحت تأثير التجربة، ولا أراه ضرورة ولا أراه حلاً لمشكلة الإنسان النفسية أو العاطفية، وإنما أراه يضاعف مشكلات الإنسان، ولا يقلل منها، كما أنصح كل زوجة أيضًا بألا تتكبر على ظروف زوجها، وبأن تسانده فى بداية حياته وتصبر على صعوبات البداية معه، حتى يحقق نجاحه، وألاَّ تكون أحلامها فى الحياة مادية فقط، لكيلا ينعكس عليها إحباطها، إذا لم تتحقق لها هذه الأحلام فى معاملتها لزوجها، وفى نفور مشاعرها تجاهه، فنفور الزوجة من زوجها ورفضها النفسى له من أهم أسباب اندفاعه فى الاتجاه الآخر بعيدًا عنها، وحين تحاول إصلاح أخطائها يكون قد انغمس فى تجربة أخرى وتصوَّر سعادته فيها.

والآن بماذا تنصحنى يا سيدى من هذه البدائل الأربعة التى عرضتها عليك؟

لأنه قد فات أوان العتاب، فلن أعاتبك على ما فعلت بحياتك وزوجتك الشابة وطفلتيك بعد عامين فقط من الزواج، وطفلتاك لم تفطما عن الرضاعة بعد، نعم لن أعاتبك لأنك تعرف الآن جيِّدًا أنك قد اندفعت اندفاعًا خطيرًا وراء أهوائك، ولم تصبر على «مقاساة الأهل والولد»، التى اعتبرها الإمام الغزالى بمنزلة الجهاد فى سبيل الله، وأسرعت بالفرار من أول معركة، وعالجت مشكلتك مع زوجتك الأولى، بما لا يقربِّها من الحل، وإنما بما يزيدها تعقيدًا ويضيف إلى كاهلك المزيد والمزيد من المعاناة والمشكلات.

إن العقلاء يعرفون يا صديقى أن فترة الزواج الأولى هى أكثر فتراته صعوبة ومعاناة، مع تأقلم الطباع وصراع الإرادات والتكيف مع ضرورات الحياة المشتركة مع من يرتبط بها الإنسان، وهى فى مجموعها ضرورات غيرية تتناقض مع ذاتية الإنسان، وتتطلب من كل طرف أن يروِّض نفسه على التنازل عن كثير من فرديته واعتباراته الذاتية، لكى يجمع بينه وبين الطرف الآخر قاسم مشترك أعظم، تتحد حوله الإرادتان وأنت لم تصبر على زوجتك الأولى.

ولم تنشغل عن ذاتك ونفسك بطفلتيك الرضيعتين، فتتصبر بهما على زوجتك، أو تحاول إصلاحها من أجلهما ومن أجلك، بل إنك

حتى لم تنفصل عنها إذ يئست من إصلاحها أملاً فى أن تتعلم من محنة الانفصال درس التجربة الأليم، وتثوب إلى رشدها بعد فترة، وإنما استسلمت لأول طارق على بابك، وأسرعت بالزواج بعد عامين فقط من زميلتك المطلقة التى تكبرك بسبع سنوات، وعمرك لا يزيد على سبعة وعشرين عامًا فقط لا غير، فبم أستطيع أن أصف مثل هذا التصرف، إلاَّ أنه الاندفاع الأهوج الذى لا يَرُدُّ معه الإنسان على تصرفاته، ما ينبغى أن يرده عليها من آلاف القيود والاعتبارات الاجتماعية والإنسانية، وأولها قيد العدل مع الآخرين. وقيد القاعدة الشرعية «لا ضرر ولا ضرار»، بمعنى ألاَّ يضر بنفسه ولا بالآخرين، فإذا كنت قد أسعدت نفسك، أو تصورت ذلك بزواجك الثانى المتعجِّل، وأسعدت الأخرى، فلقد آذيت زوجتك الشابة الجميلة وعرضتها لمحنة قاسية بعد عامين فقط من زواجها، وآذيت طفلتيك وآذيت والد زوجتك وأمها وأخوتها، وفعلت كل ذلك دون أن يهتز لك جفن، مبررًا إياه ببعض المتاعب، التى لم تخل حياة كثيرين من أمثالها فى بداية الزواج، ثم ما لبثوا أن تغلبوا عليها وصفت لهم حياتهم بعد ذلك. وربما تكون مبالغًا بعض الشيء فى تصويرك لنفورها منك، ورفضها لك استسلامًا لميل الإنسان الغريزى لأن يبرر لنفسه تصرفاته، بما يجعلها دائمًا عادلة وضرورية.

ومع ذلك فحتى لو كانت شكواك صادقة تمامًا من زوجتك الأولى، فإن زواجك من أخرى لم يكن هو الحل الملائم لمشكلتك معها، وقد ذكَّرنى «الحل» الذى اخترته لمتاعبك معها بما فعله أحد الملوك البدائيين،

حين ركب البحر مع خدمه فهاجت أمواجه وتلاعبت بالسفينة، وبدلاً من أن يعود أدراجه للشاطئ أو أن يصمد لهياج البحر، ويأمر خدمه بالحفاظ على المركب حتى تهدأ العاصفة، غضب من البحر فأمر خدمه بأن يجلدوه ثلاثمائة جلدة، وفعلوا ذلك فتحطمت بعض المجاديف وغرق بعضها الآخر، وسقط بعض الخدم فى البحر الهائج، فازداد تلاعب الموج الصاخب بالمركب بدلاً من أن يخف، وهكذا فعلت أنت بحياتك يا صديقى وجلدت البحر فازداد هياجه عليك!

فإن كان لرسالتك هذه من قيمة، إلى جانب ما ترويه من تجربة فريدة من تجارب الحياة، التى لا تتوقف غرائبها ففى أنها حقًّا «صوت من الجحيم»، كما قلت فى رسالتك يحكى لنا عن معاناة صاحبه من التمزق بين زوجتين وحياتين وشخصيتين وطموحين متناقضين، يجعل من حياته بينهما كلعبة شد الحبل المستمرة إلى مالا نهاية.

وفى أنها أيضًا نصيحة مصهورة بنار التجربة لكل إنسان، بألاً يندفع وراء أهوائه غافلاً عن حقوق الآخرين عليه وواجباته تجاههم، وعشرات الاعتبارات الإنسانية الأخرى، وأولها أن يضع «الأبرياء» دائمًا فى اعتباره عند اختياره لسعادته الشخصية، كما أنها نصيحة غالية أيضًا لبعض الزوجات بأن يصبرن على صعوبات البداية مع أزواجهن، وبألاّ يقعن فى خطيئة الرفض الداخلى لأزواجهن، وقد تزوجنهم باختيارهن غير مرغمات، فإن عجزن فى النهاية عن احتمال الحياة معهم، واستسلمن للاعتبارات الذاتية وحدها دون مراعاة لمصلحة الأبناء الأبرياء، فالانفصال وتحمل تبعاته القاسية أكرم لهن وللأزواج من

الاستمرار فى حياة زوجية يرفضنها نفسيًا ومعنويًا ويرفضن أيضًا - بالقدر نفسه - التخلِّى عنها لاعتبارات شخصية، ليس من بينها الحرص على مصلحة الأبناء كالعجز عن التغيير، أو العجز عن احتمال الأعباء النفسية للانفصال. . إلخ، وهو حديث يطول ولا أريد الإسهاب فيه، حتى لا يشغلنى عن مشكلتك العجيبة هذه.

إنك تسألنى عمَّا أنصحك به من هذه الخيارات أو البدائل الأربعة، التى فكَّرتَ فيها طويلاً، وقبل أن أشير عليك بشىء منها دعنى أنصحك أولاً باختيار منهج خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق الذى قال: «ما ترددت بين أمرين إلاَّ اخترت أبعدهما عن هوى نفسى».

وهو منهج حكيم ولو طبقته بأمانة على بدائلك واختياراتك، لوجدت أن أبعدها عن هوى نفسك هو أقربها إلى العدل والمنطق والحكمة.

فأنت تسلِّم أنك قد أصبحت عاجزًا نهائيًا عن الاستمرار مع الزوجتين والتمزق بينهما، إذن فلابد من أن تضار إحداهما أو كلاهما بالخيار الذى ستختاره حلاً لمشكلتك، فإذا أخذنا بقاعدة «أهون الضررين» فإننا نسلم بأن طلاقك لزوجتك الثانية لن تضار به سواها، أما طلاقك لزوجتك الأولى فسوف تضار هى به، وتضار به أكثر طفلتاك، وهكذا فإن هذه القاعدة الرشيدة تهديك إلى الخيار الأفضل، وهو أن تنفصل عن زوجتك الثانية وتعود للحياة مع زوجتك الأولى وتجاهد لإصلاحها،

وتتلمس لها بعض العذر فى عصبيتها معك، وضغوطها عليك خلال الفترة الماضية، لأنك لا تعى عمق المحنة التى عَرَّضتها لها، كما أنها لاشك قد تعلَّمت الآن الكثير والكثير من خبرة الحياة خلال السنوات الأربع أو الخمس التى مضت على زواجك الثانى، ولأن هذا الخيار هو أبعد الحلول والخيارات عن هوى نفسك، فهو أقربها إلى العدل والحق.. وتصحيح الأخطاء.

لكن مؤونة العدل شديدة ولا يتحملها إلاَّ أهل الحق فهل أنت منهم يا صديقى؟

إنك لو غفلت عن نفسك، وعن اعتباراتك الشخصية وعن «روحك»، التى تقول إنك ستفقدها، إذا اكتفيت بزوجتك الأولى وتذكرت فقط واجبك الإنسانى والدينى والأخلاقى تجاه طفلتيك، التى لم تبلغ كبراهما بعد السابعة من عمرها، وستزدادان احتياجًا لرعايتك وإشرافك وحنانك خلال الفترة المقبلة، لو أنك تذكرتهما وحدهما لهداك ذلك وحده إلى الطريق الصحيح لحل مشكلتك، ولما احتجتُ إلى هذه المناقشة الطويلة معك، ولا إلى هذا التردد بين هذه الخيارات والبدائل، فالواجب الإنسانى فوق كل اعتبار يا صديقى، وهو عند أهل الحق غير قابل للمناظرة مع غيره من الحلول والبدائل، لأنه يحسم كل مناقشة من البداية، فتذكر واجبك تجاه طفلتيك وزوجتك الأولى، التى لم تتخل عنك حتى بعد أن عرضتها لهذه المحنة القاسية، واتبع ما يمليه عليك ضميرك هذه المرة وليس هوى نفسك، لأنك إن اتبعت هوى نفسك فسوف تجد أن أحب الخيارات والبدائل إليك هو طلاق الاثنتين

معًا، والسفر إلى الخارج ضاربًا عرض الحائط بكل شيء وتاركًا الجميع ينزفـون وراءك. وهذا ليس حـلاً يـا صـديقـي، وإنمـا هـروب من المشكلات بلا أية محاولة لحلها، وتحجيم خسائرها وأضرارها، ونكوص عـن تحمـل تبعـات أفعـال المـرء التي لا ينكص عن تحملها إلاَّ من شـغلتـهم ذواتهم عن كل شيء آخر في الحيـاة، ولست أحسبك من هؤلاء، ولن تكون منهم بإذن الله - فلماذا التردد والحيرة؟

« ماذا ينتظر من يقسو على طيوره الوليدة سوى أن تشرد بعيدًا عن سمائه ملتمسة الأمان والدفء، في عش آخر؟! »

أنا سيدة متزوجة منذ أعوام، ولي ولدان، وزوجي إنسان فاضل وطيِّب القلب ، وأدعو الله أن يستمر هكذا إلى النهاية، وقد تفتحت عيناى فى أسرتى منذ صغرى على نار الغضب، التى تتملك أبى باستمرار على أمى المسكينة الطيبة، فأنا الابنة الوسطى بين شقيقين تقاسما معى هذه الذكريات الأليمة، وكانت أمى سيدة رحيمة القلب، من عائلة ميسورة أمًّا والدى، وهو موظف كبير، من عائلة متوسطة أحب أفرادها أمى حبًّا جمًّا وتعاطفوا معها.

وبرغم زواجى واستقرار حياتى الآن مع زوجى، فما تزال الذكريات الأليمة تطاردنى، ومن بين كل ما شهدته فى طفولتى حفرت الأيام فى ذاكرتى مشهدًا مؤلمًا ظل يتكرر طوال طفولتنا وصبانا، وهو منظر «الصرّة» أو ملاءة السرير التى ينهض أبى بعصبية وغضب، ويجمع فيها ملابس أمى وملابسنا نحن الأطفال، ثم يحزمها ويلقى بها من النافذة فتسقط على أرض الشارع بصوت مدوٍّ، يعلن للجميع أن أبى قد طرد أمى مرة أخرى من بيته، ومن حياته مع إصراره على أن يتم ذلك كل مرة بهذا الشكل العلنى الفاضح والمزرى، بالرغم من كثرة عدد

الحقائب التى تملأ البيت، ومن أن أمى تستطيع أن تحمل أشياءها فى صمت وتمضى، لكن هكذا كان الغضب يفعل به، فتخرج أمى ونحن وراءها باكين كسيرى الخاطر إلى بيت أبيها، وتبقى فيه ونحن معها فترات طويلة ثم تعود استجابة لإلحاح جدّنا لأبى، الذى يتعاطف مع أمى، ويشفق عليها من حدة طباع ابنه، ويعدها بألاَّ يتكرر المشهد الفاضح مرة أخرى، وترجع إلى بيتنا فلا تمضى فترة طويلة حتى يتكرر مرة أخرى بكل تفاصيله، ولم يكن هذا المشهد هو كل صور معاناتنا مع أبينا، فالحديث يطول عن باقى ألوان العذاب التى تجرعناها منه مرغمين وصابرين، ابتداء من الحرمان من الطعام إلى الربط بالحبال والضرب بالحزام لأتفه خطأ، كان يتحدث أحدنا بصوت عال وهو نائم أو يكسر طبقًا من الأطباق، وغير ذلك مما لا يحاسب عليه الأهل أطفالاً صغاراً مثلنا، أما أخطاء أمى التى كانت تعرضها للشجار ونار الغضب فكثيرة مثل أن يتجرأ أحد أقاربها ويزورها مرة أو تتأخر دقائق فى إعداد مائدة الطعام له. إلخ.

وفى هذا الجو الكئيب عشنا طفولتنا وصبانا، كأننا ننفِّذ حكمًا صادراً ضدَّنا بالمعاناة لسبب لا نعرفه، ووصل شقيقى الأكبر إلى الثانوية العامة فرفض أبى - الذى أصبح فى ذلك الوقت مديراً عامًا - أن يسمح له بتلقى أى دروس خاصة برغم حاجته إليها، فامتثل لقراره مرغمًا واعتمد على المجاميع المدرسية، وعلى نقل أوراق الدروس الخصوصية من زملائه، الذين يتمتعون بعطف آبائهم، وكان ينقلها بيده، لأننا لا نعرف تصوير الأوراق ونفقاته، ثم تأخَّر ذات يوم فى نقل هذه الدروس عند

أحد زملائه، ورجع للبيت بعد موعده الطبيعى، فرفض أبى أن يفتح له باب المسكن، وظل شقيقى واقفًا أمامه ساعتين يدق الباب بخوف وصبر، وأمى فى الداخل تتوسل لأبى بدموعها الغزيرة أن يصفح عنه، ويسمح له بالدخول لأن امتحاناته بعد أيام، ونحن نبكى فى صمت ورعب حزنًا على أخينا، وخوفًا من أبينا، حتى وافق أبى أخيراً على السماح له بدخول البيت، وتكررت مشكلات أبى مع شقيقى، الذى يستعد لامتحان الثانوية العامة طوال فترة مذاكرته، واستمرت حتى صباح يوم الامتحان نفسه، فلم تحتمل أمى التى صمدت لكل الأهوال الماضية أكثر من ذلك، وسقطت مريضة بالذبحة الصدرية صباح يوم الامتحان، وخرج أخى إلى الامتحان مضطربًا ونقلت أمى إلى المستشفى ومكثت به شهراً كاملاً. ونتيجة لكل هذه المعاناة خرج شقيقى الأكبر من بيتنا مستجيراً بجدى لأبى، وأقام عنده ورفض العودة إلى بيت أبى، ورحب به جدى فما إن فعل ذلك حتى غضب منه أبى غضبًا هائلاً، وقاطعه وحرَّم علىّ وعلى شقيقى الأصغر الاتصال به، وهو الرجل الوحيد الذى يحمل لنا فى قلبه بعض الحنان.

وتوفيت أمى إلى رحمة الله بعد ذلك بشهور، وجاء شقيقى الأكبر فى هذا اليوم الحزين من بيت جدى باكيًا، ويريد أن يرانا ويشاركنا مصيبتنا، فإذا بأبى يرفض أيضًا - وبإصرار، غريب - دخوله البيت حتى فى هذا اليوم العصيب، فاصطحبه أحد الأقارب برفق إلى الشارع مواسيًا له، ووقف شقيقى فى الطريق أمام بيتنا يبكى أمه التى رحلت، وأخوته الذين حرم من رؤيتهم، ورفض أن يتحرك من مكانه وانخرط فى بكاء طويل،

فلم يطق أخى الأصغر صبراً وتجرأً وخرج إليه فى الشارع، فتعانقا وانخرطا معًا فى بكاء مرير حتى بكى كل من رآهما من الأهل والجيران.

ومضت حياتنا برغم كل ذلك، والتحق شقيقى الأكبر بالجيش واستطاع استكمال تعليمه، وهو يؤدى خدمته العسكرية، وتخرج فى كليته، وعمل بإحدى الشركات لفترة، ثم سافر إلى دولة عربية منذ سنوات، ولا نعرف الآن من أخباره سوى القليل، إذ لا يزال يخشى الاتصال بنا حتى لا يتسبب فى أية مشكلات جديدة مع أبينا، الذى فرض علينا مقاطعته، أما شقيقى الأصغر، فلقد تغيرت شخصيته كثيراً منذ وفاة أمنا، كأنما صقلته المحنة والحزن، وأصبح أكثر صلابة فى مواجهة أبى، وأصبح متفوقًا فى دراسته وشجعنى بتفوقه على استكمال دراستى الجامعية، وعقب حصوله على الثانوية العامة، التحق بالكلية التى أرادها هو وليس بالكلية التى يرغبها أبوه، فى حين رضخت أنا لرغبته، والتحقت بالكلية التى اختارها لى، وبعد تخرجه عمل شقيقى فى إحدى الشركات بعيدًا عن مدينتنا، أو قل بعيدًا عن أبى.

أما أنا فقد تحملت مسئولية البيت، وأنا أدرس بالجامعة وتخرجت وعملت وتقدم لى أكثر من شاب مناسب، فما إن يبدى رغبة فى الزواج منِّى، ويبدأ فى عمل التحريات الضرورية عن أسرتى، حتى يسمع الكثير والكثير عن طباع أبى الحادة، فيفر هاربًا إلى أن تقدم لى زوجى وهو من أبناء إحدى محافظات الجنوب، ولم يهتم بأن يسأل عن أبى كما فعل غيره ونصح الأهل أبى أن يوافق عليه بلا تردد، حتى لا يفوتنى قطار الزواج، فوافق بشرط أن أقيم معه فى المنزل نفسه، بالرغم من أن زوجى

لديه شقة مجهزة للزواج، ووافق زوجى على ذلك وحالت مشاغل زوجى فى عمله دون الالتقاء بينه وبين أبى كثيرًا أو وقوع الصدام معه، وأنجبت منه طفلين لقيا من أبى المعاملة نفسها التى لقيها من قبل شقيقاى فى طفولتهما.

أما أنا فقد حللتُ للأسف محل أمى فى الشجار الدائم معى على أتفه الأسباب، وبعد فترة من عمل شقيقى الأصغر، فى مدينته قرر أن يرتبط بشقيقة أحد زملائه، وعاد إلينا ليخبرنا بالنبأ السعيد، ففوجئ باعتراض أبى على المشروع من أساسه، لأنه لم يُستشر فيه قبل خطوة البداية، ولم تكن له فيه الكلمة النهائية، فلم يتوقف شقيقى كثيرًا عند اعتراضه، ومضى فى مشروع الزواج بلا تردد، فكان «العقاب» المنتظر هو امتناع أبى عن الذهاب لأهل الفتاة لخطبتها، ثم عن حضور الزفاف أيضًا، مع منعى من مشاركة أخى الأصغر فرحته فى ليلة زفافه! أما زوجى فقد حضر زفاف شقيقى، وكان هذا هو بداية جفاء أبى له، فقد اتخذ منه موقفًا وطالبنى وطالبه بمقاطعة شقيقى، وتنبه زوجى المشغول بعمله لما يجرى حوله، وبدأ يلومنى على طاعتى العمياء لأبى، وبدأت معاملته معى تتغير أيضًا وكثرت فترات غيابه عن البيت، لكى يتحاشى الكلام معى أو مع والدى، ثم عاد ذات يوم وأبلغنى أنه قرر بصفة نهائية أن ننتقل أنا وهو والطفلان إلى الشقة التى أعدها لزواجه منذ سنوات، خصوصًا بعد أن تكررت شكوى الطفلين من سوء معاملة جدهما لهما، حتى أمام أبيهما، وإن لم أستجب لقراره فسوف يكون له معى شأن آخر!

وفاتحت أبى برغبة زوجى، فغضب وحذَّرنى من أننى إذا غادرت بيته فلن أعود إليه مرة أخرى، وسيقطع كل صلة له بى، وأنا الآن حائرة بين

زوجى الذى يعد الشقة للانتقال إليها، فى خلال وقت قصير، وبين أبى وتهديده لى بالمقاطعة، ولا أعرف ماذا أفعل؟ وأريد أن أسألـــك هـــل لو غادرت بيت أبى استجابة لرغبة زوجى، أكون قد عققت أبــى فعــلاً كمــا يــقول لــى، أم أن الموقف الصحيح هو أن أطيع زوجى فيما أراد كما ينصحنى بذلك الجميع؟

يبدو أنه صحيح إلى حد كبير ما جاء على لسان إحدى شخصيات الكاتب المسرحى الأمريكى آرثر ميللر، من «أن هناك أشخاصًا يفضلون أن يُشنق الجميع على أن يُوجه إليهم أى لوم أو يعترفوا بأى خطأ أو يرجعوا عنه»، ووالدك فيما يبدو من هذا النمط الغريب من الشخصيات، التى لا تعترف بخطأ ولا ترجع عنه أبدًا، وإن انهالت فوق رؤوسها المطارق! ومشكلة أصحاب مثل هذه النزعة القطعية التزمتية فى التفكير، أنه قد تتزلزل الجبال ولا يتزحزحون قيد أنملة عن مواقفهم الصارمة، بسبب بسيط هو أنهم يؤمنون بأنهم وحدهم الذين يتربعون على عرش الحكمة والتصرف الصحيح، وكل من يخرج على إرادتهم موصوم بالخطيئة إلى يوم الدين، ولابد من طرده ومقاطعته إلى النهاية. وأمثال هؤلاء لا يتعلمون من تجاربهم مع الأسف، ولا يتوقفون أبدًا لمواجهة حياتهم، ومحاولة تبين أسباب انصراف الآخرين وابتعادهم عنهم، وحتى إذا فعلوا ذلك فستكون نتيجة «المراجعة» النهائية دائمًا، أن أسباب ابتعاد الآخرين هو جحودهم، وعقوقهم وأى سبب آخر لا يتعلق بهم. لهذا أقول لك إنه لا أمل مع الأسف فى أن يتغير أبوك، أو يخفف من غلوائه معك، أو مع ابنيه الشاردين بعيدًا عنه.

فمن لم يرق قلبه لابنه المطرود من رحمته، حين يجئ حزينًا باكيًا ليشارك أخويه أحزانهما فى وفاة أمه، ولا يهتز لخروج الآخر من جنته،

فيستمر فى مقاطعة هذا وذاك، ويطالب ابنته وزوجها بمقاطعتهما معًا، من كان هذا شأنه يا سيدتى لا أمل فى أن يرق قلبه لشىء، أو يرجع عن خطأ، ولا مفر من التعامل معه بحذر لتجنب الصِّدام معه أو مخالفته مع محاولة مجاراته فيما لا معصية فيه للخالق، حفاظًا على الخيط الرفيع الذى يربطه بك، لكن هذا لا يعنى من جانب آخر أن تعرضى حياتك الزوجية وطفليك للخطر، لمجرد إرضائه والرضوخ لإرادته ضد إرادة زوجك، فمن حق زوجك شرعًا وقانونًا أن يستقل بأسرته وزوجته، فى مسكن خاص به، وليس من حق أبيك الذى لم يتعلم أبدًا من تجاربه، أن يضع علاقته بك فى إحدى كفتى الميزان، واستجابتك لرغبة زوجك فى الكفة الأخرى، كأنما يدفعك بذلك دفعًا للخروج على طاعته، والعاقل يعرف مقدَّمًا أنه لا نتيجة لفرض هذا الخيار عليك، إلاَّ أن تطيعى زوجك إيثارًا للمصلحة الأكبر، وهى مصلحة الأسرة والأطفال والزوج، بل ومصلحتك أنت أيضًا فى الحقيقة على المصلحة الأصغر، وهى إرضاؤه والحرص عليه، فطاعة الزوجة لزوجها مقدمة على طاعتها لأبيها، كما جاء بوضوح وبفهم راق لحقائق الحياة فى الحديث الشريف، أم أنه لم يسمع بذلك من قبل، كما لم «يسمع» أيضًا بأنه «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»، حين أمرك بمقاطعة أخويك وهما رحمك وشريكا معاناتك المريرة السابقة؟ . . والرسول الكريم يقول لنا: إن الرحم «معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه»، ومن أى مصدر يستمد ثقافته الدينية، وحكمته التى حارت فى فهمها الأفهام، وهو الذى يرى نفسه دائمًا محتكرًا للحق وحده؟ وكيف لم يعرف أنه ليس للأب أن يفرض على أبنائه الراشدين إرادته، أو يلزمهم

بما لا يريـدون لأنفسهـم ، لأنـه لا يملكهم بالقهر والتسلط والإرغام ، وقد صاروا كباراً ومسئولين عن حياتهم ، وإنما بالحب والعطف والإيثار ورعاية حدود الله وأوامره معهم؟

لقد عقَّ أبوك ابنيه ، ولم يعقاه كما يتصور ، وحرم نفسه منهما ومن حنانهما وبرهما به بقسوته وتسلطه ، والآن قد جاء دورك فيما يبدو ، لأن يضعك أمام الخيار الذى لا مفر معه من أن تخرجى أنت أيضًا على إرادته ، فأية حكمة وأى رشاد هذا؟ وماذا ينتظر من يقسو على طيوره الوليدة سوى أن تشرد بعيدًا عن سمائه ملتمسة الأمان والدفء فى عش آخر؟

يا سيدتى أطيعى أباك فيما لا يهدد سعادتك وأسرتك بالخطر ، وترفَّقى به حتى ولو قسا عليك طلبًا لجوائز السماء ، ولكنْ الزمى زوجك فى النهاية ، سواء أقام أم هجر بيت أبيك ، وحاولى إفهام أبيك بلطف أنك لست طرفًا فى حرب الإرادات المتعارضة بينه وبين زوجك ، وإنما تقبلين بما يتوصلان إليه من نتائج مهما كانت ، وليتفضل هو بإقناع زوجك بالاستمرار فى الإقامة معه ، إذا أراد ولسوف ترحبين بذلك إذا قبل زوجك به ، أما إذا لم يرض - وهو غالبًا ما سيحدث - فإنك مطالبة بطاعة زوجك ومصاحبته إلى حيث يقيم التزامًا بأمر ربك ، ورعاية لحق طفليك وزوجك عليك .

وسوف يعفيك هذا «المنهج» - ولو ظاهريًا على الأقل - من الوقوف صراحة ضد إرادة أبيك ، أما إذا أصرّ أبوك على تهديده لك بالمقاطعة ، فلا تيأسى من محاولة استرضائه ، وتخفيف غضبه ولا تتوقفى عن زيارته

والاهتمام بشئون بيته، بعد انتقالك إلى بيت زوجك، وظنِّى أنه لن يصمد طويلاً هذه المرة لمقاطعتك، ليس لأن مشاعره وأفكاره قد تغيرت، وإنما لحاجته الإنسانية إليك لرعايته فى وحدته، والاهتمام بشئون بيته، فإذا خالف بعد ذلك كل ما نعرفه عن الطبيعة البشرية، وقاطعك بالفعل، وسد أبوابه فى وجهك نهائيًا ورفض حتى مساعدتك له واهتمامك بأمره، فماذا تملكين له؟ بل وماذا يملك أى إنسان لشخص قد قطع أذنيه بيديه واحدة بعد أخرى؟ ثم تحدّانا بعد ذلك أن يفقأ أيضًا إحدى عينيه بإصبعه، وأقدم على ذلك وسط ذهولنا ووقف أمامنا ينزف مزهواً، بأنه قد هزمنا ونجح فى التحدى!

« نحن نجيد تحكيم العقل والحديث بمنطق عقلانى بارد وقاس أحيانًا لا يأبه بالمشاعر الإنسانية كثيرًا حين يكون تطبيقه فى صالحنا، وتختلف المفاهيم على الفور؛ فنتحدث بمنطق الرحمة والعطف والإنسانية إذا كان ذلك فى صالحنا ».

أنا سيدة فى السابعة والعشرين من عمرى ، والدى رجل جامعى مثقف، يمارس عملاً تجاريًّا ناجحًا، ووالدتى سيدة مثقفة وطيبة، فنشأت فى بيت يسوده الحب والتفاهم بين الأبوين من ناحية، وبين أبنائهما الأربعة من ناحية أخرى، وتقدَّمنا جميعًا فى دراستنا حتى حصلت على الثانوية العامة بمجموع كبير، والتحقت بإحدى كليات القمة بالقاهرة وغادرت مدينتى الساحلية لأقيم فى العاصمة بالقرب من كليتى ، وواصلت حياتى الجادة حريصة على ألاَّ أدخل فى أية علاقات أو مهاترات، إلى أن وصلت إلى السنة النهائية بكليتى، فدعتنى ذات يوم طالبة صديقة إلى حفل عيد ميلادها، ولبيتُ الدعوة، ووجدت فى بيتها عددًا من الزميلات والزملاء، وقدمتنى خلال الحفل إلى مهندس شاب، عرفت منها أنه ابن عمها وتحدثت معه من باب المجاملة لحظات، ثم انصرف كل منا إلى حال سبيله، وبعد أيام نسيت هذا الحفل، ومن التقيت به فيه، ففوجئت بهذه الصديقة التى لا تدرس فى كليتى نفسها، تأتى إلىّ فى الكلية ومعها ابن عمها، فتحدثت إليها وإلى قريبها

دقائق، وعرض هو أن يوصلنى إلى البيت بسيارته فاعتذرت له، وانصرف وبعد أيام رجع مرة أخرى، وطلب منِّى أن يلتقى بى خارج أسوار الجامعة لأنه يريد أن يتحدث معى فى أمر مهم، فطلبت منه أن يحدثنى فيما يريد ونحن واقفان فى الكلية، وإلاَّ فلينصرف مصحوبًا بالسلامة، فاعتذر وانصرف.

وفى نهاية الأسبوع سافرت إلى أهلى فى المدينة الساحلية كعادتى الأسبوعية، وقررت البقاء بينهم فترة لمراجعة دروسى استعداداً لامتحان السنة النهائية، فأبلغنى أبى أنه جاء مهندس شاب يعمل مع أبيه، وطلب يدى منه فعرفت على الفور أنه الشاب نفسه الذى رفضت الخروج معه من الكلية، واعتقدت أننى لن أراه مرة أخرى، فإذا به قد غادرنى ليخطبنى من أبى، وأسعدنى ذلك كثيرًا ورأيت فى تصرفه نبلاً وأمانة، ووجدت فيه كل المميزات التى أتمناها لنفسى فى شريك حياتى، فهو شاب وسيم وطيب ومتدين وعلى خلق.

وتمت الخطبة بعد أدائى للامتحان بنجاح، وتم القران والزفاف بعدها بشهور، وسافرنا معًا فى رحلة شهر العسل وعدت منها إلى عش الزوجية الجديد فى القاهرة بعيداً عن أسرتى.

وبدأت حياتى الزوجية معه، ووطنت نفسى منذ البداية على أن أتقبل بعض التغيرات المتوقعة فى شخصية زوجى بعد الزواج، إذ ليس معقولاً أن تستمر الحياة بيننا كما كانت بنفس لمساتها الرومانسية فى شهر العسل، ولابد أن تحدث بعض الخلافات العادية بيننا من حين لآخر، «ففوجئت»

بأن زوجى لم يتغير فيه شىء عن الشاب الذى عرفته فى مرحلة الخطبة. وشهر العسل؛ فقد ظل الزوج الطيب الشهم الحنون العطوف، الذى يعرف ربه ويخشاه ويفهم الرجولة بمعناها الصحيح، ولا يدَّخر جهداً لإسعادى ولا يستريح إلاَّ حين يرانى سعيدة ومبتهجة، فكانت النتيجة الضرورية هى أننى قد أحببته بكل ذرة فى كيانى، ومضت من عمر زواجنا ثلاث سنوات، لم نتخاصم أو نتشاجر خلالها مرة واحدة، اللهم سوى مرة عابرة عاتبته فيها على شىء لا أذكره الآن، فلم تمض ساعة حتى كنا قد تصالحنا ونسيناه.

لكن دوام الحال من المحال فيما يبدو يا سيدى، فلقد تأخرّنا فى الإنجاب، وسألنى زوجى إذا ما كنت أعارض فى عرض نفسى معه على الطبيب، فلم أجد سببًا للاعتراض وذهبنا معًا وأجرينا التحاليل المطلوبة لكل منا، وذهب زوجى لتسلم نتائج التحاليل فلم يعد فى موعده الطبيعى، وتأخر أربع ساعات كاملة، ثم رجع إلى البيت فى منتصف الليل واجمًا وشاردًا، وأسرعت أسأله عن سبب تأخره فأشار إلىَّ بيده بما معناه أنه لا شىء، وتركنى واتجه إلى الصالون رافضًا تناول العشاء، ووقفت أنتظر أن يدعونى للحديث معه أو يصارحنى بما يشغل خاطره، وتركزت شكوكى كلها فى نتيجة التحاليل، وعرفت أنها لابد قد كشفت عن عدم قدرتى على الإنجاب، وأنه يشفق علىَّ من إبلاغى بذلك، وبعد وقت طال علىّ برغم قصره دعانى وطلب منى الجلوس ليحدثنى فى أمر مهم، فرأيت عينيه لأول مرة منذ عرفته مغرورقتين بدمع يكافح لكى يكبحه، وقال لى إنه تسلم نتائج التحاليل وعلم من الطبيب

أنه غير قادر على الإنجاب، وأن العلاج فى مثل حالته ليس مضمونًا، فى حين أننى قادرة على الإنجاب بلا أى عوائق، ولهذا فهو لا يستطيع أن يظلمنى ويحكم علىّ بالحياة معه دون إنجاب، ولابد لنا من الانفصال حتى أجد فرصتى مع غيره وأتزوج وأنجب أطفالاً، وسوف يعوِّضنى ماديًا ويؤمن مستقبلى ويقدم إلىَّ. . . إلخ. فلم أسمع بقية كلامه وانهرت باكية وقبلت يديه ورجوته وتوسلت إليه ألاَّ يتركنى، لأننى لا أحتمل الحياة بدونه أو مع أى إنسان آخر سواه، فإذا كان يريد أن يطلقنى لأنه قد كرهنى أو لا يريدنى فليصارحنى بذلك، وسوف أتقبل أقدارى صابرة، أما إذا كان يريد طلاقى لأننى لن أنجب منه أطفالاً لا يعلم إلاَّ الله ما إذا كنت سأرزق بهم أم لا؟ حتى لو كان قادرًا على الإنجاب، وهل سيكونون صالحين أم طالحين، فإنى أرفض الطلاق بكل إصرار، ولا أريد إلاَّ أن تستمر حياتى مع الرجل الأول والوحيد الذى أحببته.

وحدَّثنى طويلاً عن أنه لا يريد أن يظلمنى ويحرمنى من الأطفال، فطلبت إليه بإصرار ألاَّ يشير إلى هذا الموضوع مرة ثانية، واستجاب لرجائى بعد جهد جهيد، وعدنا إلى حياتنا السعيدة، وبذلت كل ما أملك من جهد لإشعاره بأنه لا يظلمنى بحياتى معه، بل إنه يظلمنى إذا حرمنى منه، وشيئًا فشيئًا عاد الأمان والسلام إلى حياتنا من جديد، وسافرنا معًا فى إجازة وعدنا منها وكل منا أكثر حبًا للآخر عن ذى قبل، ومضت أربعة شهور، ثم زارتنا أمه فى بيتنا ودخلت إليها فى الصالون لأرحب بها، ففوجئت بها تقابلنى بسيل من الإهانات وعبارات الاستهجان،

لأنها اكتشفت أخيراً أننا قد عرضنا أنفسنا منذ شهور على الطبيب، وأجرينا تحاليل الإنجاب وأخفينا الأمر كله عنها طوال هذه الفترة، مما يؤكد بوضوح أن النتائج قد كشفت عن عجزى عن الإنجاب، فتكتمت الأمر وواصلت حياتى مع زوجى، ولا يعنى ذلك فى رأيها سوى شىء واحد هو أننى إنسانة أنانية لا أحب ابنها حبًا حقيقيًا، إذ لو كنت أحبه حقًّا لما رضيت له بأن يعيش كل حياته محرومًا من طفل يتمناه، وهو الشاب القادر على الإنجاب ولم يبلغ الثلاثين بعد من عمره، ولو كنت أحبه حقًا لأجبرنى هذا الحب نفسه على أن أتركه لكى ينال حظه من الدنيا مع غيرى من الفتيات القادرات على الإنجاب، فينجب طفلاً واثنين ويستمتع بالأبوة والبنوة كغيره من الرجال. وعقد الذهول لسانى ولسان زوجى فلم ينبس أحدنا بكلمة واحدة.

ووسط ذهولى رأيت وجه زوجى يمتقع ويكتسى بألم شديد، بسبب الصراع الذى يدور داخله، فبكيت ورجوت أم زوجى باكية أن تصمت وتكف عن الحديث فى هذا الموضوع، فلم تكف ولم يلن قلبها لدموعى الغزيرة، ولم تعطنى أية فرصة للكلام، وواصلت الحديث فى الموضوع نفسه بالكلمات نفسها تقريبًا، أو أشد منها حتى لم أعد أشعر بما حولى، وأغمى علىَّ وهى لا تزال تتكلم وأسمع بعض عباراتها المؤلمة، وأنا بين اليقظة والإغماء، وانزعج زوجى بشدة وراح يحاول إفاقتى برش الكولونيا على وجهى، فأفقت من إغماءتى على صوت زوجى وهو يقول لأمه فى ألم شديد، إنه هو المسئول عن عدم الإنجاب وليست زوجته، وإن تحاليله موجودة ويستطيع إطلاعها عليها

إذا أرادت، ويستطيع أيضًا اصطحابها إلى الطبيب الذى أجراها له لتتأكد مما يقول، فلم تنطق أمه بحرف واحد وصمتت عاجزة عن الكلام، وساد الجلسة صمت رهيب، قطعته بعد دقائق بنهوضها لمغادرة البيت دون كلام مخلِّفة وراءها - سامحها الله - بركانًا هائجًا لم يخمد بعد ذلك أبدًا فى بيتنا الذى كان سعيدًا، فلقد صمم زوجى فى الليلة نفسها على طلاقى دون تردد، لأنه اعتبر ما قالته لى أمه - متصورة أننى السبب فى عدم الإنجاب - عن الأنانية وحب الذات والحب الحقيقى وظلم الطرف الآخر وحرمانه إلخ موجهًا إليه هو، وبالتالى فإن كرامته وشرفه يأبيان عليه أن يكون هو هذا «الطرف الأنانى»، الذى تحدثت عنه أمه طويلاً وهى تتصور أنه أنا وليس ابنها.

وقد حاولت معه المستحيل لإثنائه عن نيته وفكرته، وقلت له إننى أعذر أمه فيما قالت لأنها أم فى النهاية، ولكن بلا جدوى ولا أمل، فلقد أصر على أنها - برغم إساءتها لى - قد نطقت بالحق ومن الأمانة ألاَّ يتنكر هو لهذا الحق، لأنه ينطبق عليه وليس علىّ كما كانت تتصور أمه.

وبعد رجاء وتوسلات طويلة لم تثمر محاولاتى معه سوى عن تأجيل اتخاذ أية خطوة مصيرية فى حياتنا لمدة شهر واحد، يراجع خلاله كل منا نفسه وموقفه، ويعمل بما يهديه إليه عقله وقلبه وضميره، ووافق على ذلك لكنه أصرَّ على أن أقضى هذا الشهر إما وحيدة فى شقتنا على أن يغادرها هو إلى بيت أهله، أو أتوجه إلى مدينتى للإقامة بين أهلى، حتى لا يشكل وجوده أمامى ضغطًا نفسيًا علىّ يؤثر على قرارى، وحتى

لا يضـعف هو من ناحيـة أخرى أمـامى، وفضلت العودة إلى أهلى، وعلمت أمى بالأمر الذى تكتمته طويلاً عنها فاتهمتنى بالجنون، وإننى سأصيبها بالحسرة حين أحرمها من أول أحفادها وأحرم نفسى من الأطفال.

وأنا الآن أقيم فى بيت أسرتى، وقد مضت من مهلة الشهر عشرة أيام لم تكف خلالها أمى عن البكاء حزنًا على شبابى الذى سيضيع هدراً من دون ولد يرعانى فى شيخوختى، كما تقول لى، وزوجى يتصل بى كل يوم للاطمئنان علـىّ، لكنـه لا يزال للأسف عند رأيه.

ولست أقول لك إننى فى حيرة من أمرى، وأريدك أن تساعدنى على الاختيار الذى لا أندم عليه فيما بعد بين زوجى، وحياة أخرى تقدم لى الولد والإنجـاب، لا يا سيـدى لن أقـول لك ذلك لأننى لـم أتردد أمـام الاختيار لحظة واحدة، ولأننى أعرف ما أريد جيِّدًا وهو زوجـى الـذى لم ولن أحب سواه، فلست فى الحقيقة أرى الظلم فى أن تستمر حياتنا معًا كما يرى زوجى، وإنما أراه فى أن يحرمنى منه ومن حياتى معه لهذا السبب وحده.

إننى سيدة مؤمنة بربها، وأعلمُ جيِّدا أن الله قد يعطى الإنسان أشياء، ويأخذ منه أشياء أخرى. وأنا راضيـة بمـا أعطانـى، وبما أخذ منِّى، نعم إننى أتمنى - كـأية امرأة من كل قلبى - أن يرزقنى الله بالولد الصـالح، لكن هل أهدم بيْتى السعيد وأفقد زوجًا محبًّا عطوفًا شهمًا كريمًا لأن الله لم يعطنى الولد؟

ولماذا أتوقف أمام هذه النعمة وحدها، وقد أعطانى الله الكثير من النعم، فأنا شابة وجميلة ومتعلمة، ولى مركز مرموق علميًا واجتماعيًا، ومشهود لى بحسن الخلق وسعيدة مع زوج تزهو به أيةَ امرأة غيرى، ولدينا المال والحمد لله؟

فهل أتجاهل كل ذلك وأتوقف أمام الشىء الوحيد، الذى لم يعطه الله لى وهو البنون؟

إن أمى تعارضنى بإصرار فى هذا الأمر، لكنها فى النهاية لن تقف فى طريق سعادتى كما أريدها، أما زوجى فبقدر ما يحبنى بقدر ما يريد - مع الأسف - أن يطلقنى، حتى لا يظلمنى معه كما يقول، فهل تكتب إليه بكلماتك الحانية ومنطقك الهادئ، ألاّ يحطم قلبى بتركى وهدم سعادتى معه لهذا السبب؟ إنه يعجب بآرائك ويقتنع بها، وأشعر بأن أحدًا لن ينجح فى تغيير رأيه حول هذا الموضوع سواك، خصوصًا فيما يتصوره من «الظلم»، لى ومن حساب ربه له عليه، إذا ظلمنى معه «بأنانيته» فهل تبخل علىّ بكلماتك الطيبة له إنقاذًا لسعادتنا معًا؟!

حاشاى أن أفعل يا سيدتى، حتى ولو كنت أرى أنك قد عبرت عن نفسك وعن تمسكك بزوجك بأفضل مما تستطيع كلماتى أن تؤثرِّ عليه، وما لا ينبغى له إلاَّ أن يقابله بعدم التفريط فيك مهما كانت أسبابه للتضحية بسعادته معك، طلبًا لما يتصوره مصلحتك الشخصية على المدى البعيد.

إن الحب الحقيقى فى أنبل وجوهه، هو إيثار المحبوب وترجيح سعادته ومصلحته على سعادة الطرف المحب، وزوجك يا سيدتى يحمل لك هذا النوع النبيل من الحب، وأنت أيضًا بغير شك.

لكنكما تعرضتما لموقف شديد الإيلام لكما معًا ولزوجك على وجه الخصوص، بسبب تدخل أمه فى حياتكما على هذا النحو المحرج، فلم يجد أمامه استشعاراً لمسئوليته عنك وترفعًا عن أن يكون الطرف الأنانى فى العلاقة، إلاَّ أن يقدم لك هذه «التضحية» التى طالبتك بها أمه، وهى تتصور أنك أنت المسئولة عن حرمانه من الإنجاب وليس هو.

لقد استشعر زوجك حرجًا إنسانيًا مؤلمًا من حديث أمه عن الحب الحقيقى والتضحية، التى يفرضها هذا الحب، إذا كانت فيها سعادة الطرف الآخر، فأراد أن يبرِّئ نفسه وذمته من هذه الأنانية الذميم، التى اتهمتك بها ظلمًا أمه، ورأى هو أنه الأجدر بدفع هذا الاتهام الجارح عن نفسه.

لكن مـا مـعنى أن يفـرض عليك زوجك النبيل هذه التـضحـيـة من أجلك، إذا كنت أنت نفسـك ترفضينهـا ولا تريـن فيهـا سعادتـك ولا مصلحتك فى المدى القريب أو البعيد؟

إن التـضحـيـة إذا كـانت لا تطلب ممن ينبغى أن يقدمهـا، وإنما تجىء طواعية منه، فإنها أيضًا وبهذا المنطق نفسه لا تفرض على من تقدم إليهم إذا كرهوها، أو رأوا فيها تعاستهم وشقاءهم.

والعدل الذى يدفع زوجك إلى تقديم تضحيته هذه لك، هو نفسه الذى يفـرض عليه أن يتنازل عن تضـحيتـه مشكورًا إذا رفضـهـا الطرف الآخر بإصرار، ولم ير فيها إلاَّ شقاءه.

ذلك أن غاية الحياة هى السعادة المشروعة، التى لا تتعدى على سعادة الآخرين ولا تجترئ على حدود الله، وكل ما يحقق سعـادة الإنسـان فى هذا الإطار مطلـوب ومرغـوب، ولهـذا فلا مبرر لأن يحـرم زوجـك نفسـه منـك ويحرمـك منـه، لأنه يتحرى ألاَّ يظلمك بعدم الإنجاب، وترين أنت أن الظلم الحقـيقى هو أن يهـدم أسـرتك السـعيـدة لمثل هذا السبب وحده.

إنه اختيارك الشخصى يا سيدتى، ولقد كان زوجك عادلاً وأمينًا حين أصرَّ على أن تراجعى نفسك فى قرار استمرار زواجكمـا بعيدًا عن كل المؤثرات العاطفية، التى يمثلها قربه منك، حتى تتوصلى إلى اختيارك النهـائى لحيـاتك، بعـد تفكيـر منطقى هادئ لا يتـأثر بالحـرج الإنسـانى المألوف فى مثل هذه الظروف.

ولقد أدى بذلك واجبه تجاهك بأمانة وأرضى ضميره، لكن هذه الأمانة تفرض عليه أيضًا أن يلتزم بالقرار الذى تتوصلين إليه بعد مراجعة النفس والتفكير الهادئ، وهو معروف مسبقًا إذ «لا يأبى الكرامة إلا لئيم» كما يقول الشاعر، و«الكرامة» هنا بمعنى التكريم وزوجك إنسان رشيد سوف يفهم معنى تمسكك به، ورغبتك فى مواصلة رحلة الحياة معه، لكنه أراد فى تقديرى أن يتأكَّد فقط من أنه قرار العقل والقلب معًا، الذى لا تندمين عليه بعد ذلك أبدًا.

ولا لوم عليه فيما فعل بهذا الشأن، فمن حقه أن يطمئن ضميره إلى أنه اختيارك النهائى بلا أى ضغوط نفسية أو عاطفية، ولا لوم عليك فى اختيارك له بعد هذا الاختبار الذى تعرضتما له معًا، فالسعادة - كما يصفها لنا المفكر الفرنسى مونتسكيو - استعداد شخصى لدى الإنسان للإحساس بالحياة الملائمة، أيًّا كان نوع هذه الحياة. فإذا توافر لديه هذا الاستعداد، فإن عوارض الحياة المختلفة كالثروة والصحة والمرض، ومراتب النجاح إنما تزيد أو تقلل من سعادته، وإذا لم يتوافر لديه هذا الاستعداد، فإن عوارض هذه الحياة إنما تزيد أو تقلل من شقائه وتعاسته فقط.

وأنت تشعرين بأن حياتك مع زوجك هى الحياة الملائمة لك، حتى ولو خلت من الأبناء، ومؤكَّد أيضًا أنه فى أعماقه يشعر بذلك، فلماذا إذن يحرم أحدكما الآخر من هذه الحياة الملائمة؟ والحرمان من الإنجاب فى النهاية ليس نهاية الدنيا، وما أكثر سبل التعويض النفسى عنه وفى حياتك؛ كما تلمسين الكثير من أسباب السعادة الأخرى التى تعوضك

عن المفقود، أو تقلل من إحساسك به؟ إن الله سبحانه وتعالى يعطى ويأخذ كما تقولين فى رسالتك، ومن عطائه لمن حرموا الإنجاب أن يعوضهم دائمًا بالحب الزوجى الصادق، والاختيار الإرادى الحر لاستمرار الحياة الزوجية بينهم، بلا أية ضغوط اضطرارية كمصلحة الأبناء الذين لولاهم لما استمرت زيجات أخرى، خلت من الحب والتفاهم والعشرة الطيبة.

فلماذا يحكم زوجك الشهم على نفسه بالشقاء، وفى مقدوره أن ينال السعادة وألاَّ يحرمك منها، ومن أدراه حتى فى أبعد الاحتمالات أن ما يظنه مستحيلاً الآن لن يكون ميسوراً بأمر ربه بعد حين؟

يا صديقى زوج هذه السيدة المحبة المخلصة: إن لأحد كرادلة روما فى القرن الثامن عشر تعبيراً جميلاً كثيراً ما أتأمله، يقول فيه: ليس هناك شخص لا يزوره الحظ السعيد ولو لمرة واحدة على الأقل فى حياته، لكنه إذا لم يجده مستعداً لاستقباله فإنه يدخل من الباب ويخرج من النافذة!

وحظك السعيد هو هذه الزوجة المحبة، التى لم تتردد لحظة أمام اختيارك حين خيَّرتها، فلماذا تدعه يفلت من يديك ثم تندم عليه حين لا ينفع الندم بعد ذلك؟ شىء أخير أختم به تعليقى على هذه الرسالة، هو أننى كنت شغوفًا للغاية بأن أعرف رأى أم زوجك فى مفهوم الحب الحقيقى، الذى يفرض على الإنسان أن يضحى بسعادته من أجل من يحب وإلاَّ كان أنانيًا، بعد أن عرفت أن من كان ينبغى أن تتوجه إليه بهذه المحاضرة القاسية هو ابنها وليس زوجته.

لقد كنت أتلهف حقًّا لأن أعرف، بعد أن تغيرت الأدوار وأصبحت التضحية مطلوبة من ابنها لا من زوجته، لكنها لم ترو ظمئى للأسف لذلك، واكتفت بالصمت العاجز وقد كنت أود أن أسألها بشغف شديد عن رأيها فى زوجة ابنها لو كانت هى التى طلبت الانفصال بسبب عدم الإنجاب فآذت مشاعر ابنها، وحكمت عليه بالتعاسة؟ إننى أفهم بغير شك أسبابها فيما فعلت ورغبتها كأم فى أن يتحقق لأبنائها الحد الأقصى من أسباب السعادة، حتى لو تعارض ذلك مع سعادة غيرهم، إلاَّ أننى لا أستطيع - برغم ذلك - أن أمنع نفسى من تأمل هذه المفارقة الغريبة، التى تكشف لنا عن أحد أسباب الشقاء الإنسانى الشائع، فالكارثة هى أننا جميعًا نحسن الحديث عن التضحية حين تكون مطلوبة من غيرنا، أو من غير أعزائنا، وتعجزنا الكلمات إذا كان هؤلاء الأعزاء هم المطالبين بهذه التضحية العادلة، التى طالبنا بها غيرهم، وأفضنا فى الحديث عن عدالتها.

كما نجيد أيضًا تحكيم العقل والحديث بمنطق عقلانى بارد بل وقاس أحيانًا، لا يأبه بالمشاعر الإنسانية كثيراً حين يكون تطبيقه فى صالحنا وصالح أعزائنا، وتختلف المفاهيم على الفور فنتحدث بمنطق الرحمة والعطف والإنسانية التى تطالب الجميع بألاَّ يحاسبوا أحدًا على أقداره، التى لم يردها لنفسه، إذا كان ذلك مع الأسف فى صالحنا وصالح أعزائنا. وبين تعارض هذين المنطقين وتنقلنا بينهما حسب الحاجة، ومع تجاهلنا فى أحيان كثيرة للمبدأ الإنسانى العادل الذى طالبنا به الأنبياء

جميعًا، ويقضى بأن نكره لغيرنا ما نكرهه لأنفسنا، إذا وضعتنا الظروف فى موقفهم نفسه، تتولد أسباب عديدة للشقاء الإنسانى وتتضاعف آلام الحياة بكل أسف.

« إننى مع دعـاة الإصلاح بين الزوجـين، بكل السبل حـرصًا على مصلحـة الأبناء، ولكن ليس على حسـاب الشرف والقيـم الدينية والأخلاقـية التى لا تحتمل المساس بها ».

أكتب لك على استحياء، راجيًا أن تشير علىّ بالرأى السديد، فأنا يا سيدى رجل فى الثالثة والأربعين من عمرى، بدأت قصتى منذ سنوات حين كنت أعمل محاسبًا بإحدى الجامعات، والتقيت فى الكلية التى كنت أعمل بها بطالبة على قدر كبير من الجمال، تصغرنى بسبع سنوات فجذبنى جمالها وأعجبت بها. ثم تزايد الإعجاب يومًا بعد يوم، حتى قررت الارتباط بها وسعدت هى برغبتى فى خطبتها، وحددت لى موعدًا مع أسرتها. وفى اليوم المحدد توجّهت إلى بيتها ففوجئت بأن أسرتها فقيرة للغاية، ومع ذلك فلم أعتبر ذلك - ولا أزال - شيئًا يعيبها، وأعاننى على ذلك أننى نفسى - وإن كنت من أسرة غنية - إلاّ أننى من الفرع الضعيف منها، وكنت أكافح وأعمل عملاً حرفيًا إضافيًا بعد الظهر لكى أعيش فى مستوى مقارب لمستوى أقاربى الأغنياء، أو على الأقل فى مستوى لا يخجلنى بينهم.

وهكذا اتفقنا على الزواج بأقل الإمكانات، على أن أواصل كفاحى لتحسين مستوى حياتنا فى المستقبل، وتزوجنا وواصلت كفاحى اليومى لأوفر لزوجتى الجميلة حياة مأمونة، وبرغم

إرهاقى فى العمل الصباحى والمسائى، فإننى تحملت معاناتــى بصــبر وبلا شكوى أمـلاً فى تحسن الظروف، وفى كل سنة من سنوات زواجنا أضيف شيئًا جديدًا إلى حياتنا، فاستكملت ما كان ينقصنا من الأجهزة والأثاث، وادخرت سنة وراء سنة مبلغًا من المال لأحقق أملى فى أن أقيم مشروعًا صغيرًا لعملى الحرفى، يغنينى عن تأجير مجهودى للآخرين ويزيد من دخل الأسرة، وشجعتنى زوجتى الجميلة فى البداية على كفاحى، وشاركتنى حلمى بامتلاك المشروع الصغير، لكن صبرها نفد بعد فترة، خصوصًا بعد أن أنجبنا أول أولادنا الثلاثة، وتخرجت وعملت موظفة بإحدى الهيئات العامة، ومع أننى حرصت - منذ اليوم الأول من عملها - على أن يكون راتبها لها وحدها، فلقد بدأت تثبط همتى وتقول لى إننى مهما فعلت فلن أصبح ثريًا مثل أقاربى الأغنياء، ثم زاد ضيقها بكل شىء، فصارحتنى بأنها قد خدعت فىّ لأنها كانت تظننى ثريًا مثل أقاربى، فإذا بقدرها يوقعها فى شخصى، وتحملت منها ذلك وتحملت سلاطة لسانها وإهمالها لى ولأولادها وبيتها، وشرحت لها مرارًا أن أقاربى الأثرياء، ورثوا مالهم عن آبائهم، أما أنا فإننى أكافح لأبنى لها ولأولادى مستقبلاً آمنًا بعرقى ودمى، فلم يشفع لى ذلك عندها، فصبرت على ظروفى وواصلت كفاحى، حتى أصبحت لى منشأة صغيرة مجهزة بأحدث المعدات مع بعض الشركاء، ولأن معظم تجهيزاتها كانت مشتراة بالتقسيط فلقد كنت أضطر لأن أغيب عن البيت حتى المساء لأواصل العمل بلا كلل، لكى أسدد أقساط المنشأة، وأستجيب مع ذلك لكل طلبات زوجتى المادية - التى لا تنتهى - وأحاول إرضاءها بكل

وسيلة فأخرج معها ومع الأولاد فى رحلات للنزهة والترويح، وأستضيف معنا من تريده من أقاربها لكى ترضى، ومع ذلك فهى لا ترضى أبدًا ودائمًا مستاءة، وغاضبة بلا سبب واضح.

ثم لاحظت عليها منذ فترة قصيرة، أنها قد أصبحت أكثر حدة فى تعاملها معى، وزادت مشاجراتها وبذاءاتها الموجهة لى بسبب وبغير سبب، ثم بدأت تمتنع علىّ كزوجة وتحرمنى من نفسها، برغم ذلك صبرت وأملت أن تزول هذه الغمة فى وقت قصير، كما حدث من قبل، لكن الغمة لم تزل وإنما عدت إلى بيتى ذات مساء، فلم أجدها فيه، وعلمت أنها قد انتقلت إلى بيت شقيقتها الأرملة، بعد أن سبتنى فى غيابى لدى والدتى وعايرتها بأننى فقير!

وقررت أن أتركها لدى شقيقتها بعض الوقت حتى تهدأ النفوس. ومضت أيام ففوجئت بها تقيم علىّ دعوى طلاق ونفقة.

وذهلت حين علمت ذلك، ولم أجد سببًا قويًا يدفعها لما فعلت، فهى أم لثلاثة أطفال صغار، وأنا مقبول من ناحية المركز الاجتماعى والمستوى المادى، وأقوم بكل واجباتى تجاهها على ما يرام، وأصبر على إساءتها لى، فما الدافع إذن لهذا التصرف الغريب؟

وقررت أن أبحث عن هذا الدافع، فسألت وتحريت وراقبتها عن بعد، فإذا بى أعرف أنها على علاقة مع مدير الإدارة التى تعمل بها، والذى يكبرها بـ 17 عامًا، ومتزوج من سيدة فاضلة وله منها ثلاثة شبان فى سن الزواج، وهو موظف دخله عادى وله سوابق غرامية عديدة، ويعتمد على زوجته فى الإنفاق على أولادها!

وعرفت مع الأسف كل ذلك متأخرًا، فلقد تبين لى أن «القصة» معروفة منذ أكثر من عامين وتعرفها زوجة المدير نفسها! ومع ذلك فقد قررت إعادتها إلى البيت بأى ثمن، لكى تكمل المسيرة مع أطفالنا ولكى أنقذها من سوء المصير باعتبارها أمًّا لأطفالى، وحاولت احتواءها فنفذت لها كل مطالبها المادية المرهقة، حتى أوشكت أن أبيع المنشأة التى شقيت لإقامتها لألبى لها مطالبها، ورجعت زوجتى إلى البيت بعد لأى، وسحبت دعوى الطلاق والنفقة، وغمرتها بالحنان والحب والعطف وقدمت لها كل شىء.. كل شىء، إلى درجة الذل والتذلل حتى تواصل مشوارها مع أطفالنا وتفيق من غيها، فلم يغير كل ذلك شيئًا من طبيعتها، بل زادت للأسف فى عنادها وفى إذلالها لى، حتى سمحت لهذا المدير بأن يتصل بها تليفونيًا ليلاً ونهارًا وفى أى وقت فى بيتى، وأرادت أكثر من ذلك أن تفرضه علىّ كصديق، فضلاً عما عرفته أيضًا من أنها تخرج معه فى خلال ساعات العمل، وتركب سيارته ويغيبان فى مأموريات لمدة ساعتين، ثم يرجعان معًا إلى العمل أمام الجميع بلا حياء ولا خجل.

وأصبحت حياتى جحيمًا لا يطاق، ومرضت حتى زادت معاناتى إلى أقصى حد، وبعد فترة أبلغتنى بأنها تريد الإقامة لفترة لدى شقيقتها الأرملة من باب تغيير الجو، فوافقت على ذلك أملاً فى أن تهديها شقيقتها للرشاد، وذهبت بالفعل إليها، ففوجئت بأنها قد اصطحبت معها الطفلين الصغيرين وتركت لى الطفل الأكبر، وبعد أسبوع اتصل بى أحد إخوتها وأبلغنى أنها تطلب الطلاق، وتتمسك به لأننى قد «أتعبتها»، ويعلم الله من منا الذى أتعب الآخر وأذاقه الذل والمرارة،

فرفضت هذا الأسلوب فى طلب الطلاق وأعلنت ذلك، فلم تأبه لى وتحدتنى بأن سافرت مع مديرها وشقيقتها وأولادها إلى مدينة ساحلية للنزهة مرتين خلال الأيام الماضية، ولم يحاسبها أحد من أهلها ولم يردعها أحد، فماذا أفعل معها يا سيدى هل أطلقها وأشرِّد أولادى، مع علمى الأكيد بأن مديرها العجوز المتصابى هذا لن يتزوجها لأن له ضحايا كثيرات مثلها، وهى تعرف ذلك جيِّدا؟ أم أتمسك بعدم طلاقها على أمل أن تعود إلى رشدها وتواصل مشوارها مع أبنائها حرصًا عليهم وعلى عدم الإساءة إليهم؟

إننى أرجو أن ترشدنى إلى الصواب . . فماذا تقول لى، ولها ولهذا الشيطان المتصابى؟

لا شأن لي بها، ولا به، ولست أريد أن أوجِّه إليهما أي كلام، فإن جاهدت نفسي رغمًا عن ذلك لكي أقول لهما شيئًا فلن أزيد عما قاله الزاهد الصالح حسن البصري لأمير رآه يضرب رجلاً بالسوط فقال له: «إن شئت فأكثر وإن شئت فقلل، فوالله ما تضرب إلاَّ نفسك» أي فما تكثر أو تقلل إلاَّ من إثم ما تفعل على نفسك ومن عقابك عنه يوم يكون الحساب»، فليختر كل منهما لنفسه ما يراها جديرة به، فليس يجدي مع أمثالهما كلام ولا نصيحة!

أما أنت يا صديقي فلي معك حديث أرجو أن يطول، وأن تفهم «إشارتي» إليك بغير إسهاب محرج في هذا الأمر الشائك والمقزز.

فلقد كان حكيم الصين كونفوشيوس يقول:

إني لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته، فإذا عرضت على إنسان ركنًا من موضوع ما، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الأركان الثلاثة الباقية فإنني لا أعيد عليه درسًا!

وأحسب أن ما أحدثك عنه، لا يجوز أن أعرض عليك منه إلاَّ «ركنًا واحدًا» لكي تشحذ أنت عقلك وإرادتك، وتتصرف في أمرك بما يهديك إليه إدراكك للأركان الثلاثة الباقية منه، وهكذا فإنني أقول لك إن الأمر كله لا يحتمل التوقف أمام «أسلوب» طلب الطلاق أو كيفيته، ولا أمام

أية اعتبارات شكلية أو جوهرية، فأنت أمام زوجة ترفضك بإصرار وترتبط بغيرك علنًا، وهى لازالت تحمل اسمك وتسافر معه فى رحلات ونزهات، وتخرج معه فى «مأموريات» خلال نهار العمل أمام الجميع وعلى رؤوس الأشهاد، وحين رجعت إليك بعد أن علمت بقصتها مع مديرها واسترضيتها ولبيت لها كل مطالبها، لم ترجع نادمة ولا تائبة عما تدهورت إليه، وإنما عادت إلى بيتك أكثر إصرارًا على الاستمرار فيما هى سائرة فيه، ورغبت فى أن تفرض عليك «رَجُلهَا» صديقًا لك برغم أنفك، وسمحت له بأن يتصل بها فى بيتك فى أى وقت من الليل والنهار، وبعد كل ذلك هجرتك وطلبت الطلاق وأصرت عليه، فماذا تنتظر حتى تجيبها إلى طلبها وتعفى نفسك من هذا الهوان؟

إننى من دعاة الإصلاح بين الزوجين بكل السبل حرصًا على مصلحة الأبناء، ومن دعاة التضحية وترجيح سعادة الأبناء واستقرارهم على السعادة الشخصية للمرء، إذا اقتضت الظروف ذلك، ولكن ليس على حساب الشرف والقيم الدينية والأخلاقية، التى لا تحتمل المساس بها، أو المناقشة حولها فحين يتدهور الموقف إلى هذا الحضيض، ويصبح الثمن الوحيد للتمسك بشريكة الحياة - حرصًا على مصلحة الأبناء - هو استمرارها فى الخطيئة أو طلب الإغضاء عنها، فلا مجال للحديث عن شىء، ولا مفر من أن يتحمل الإنسان أقداره بشجاعة وصبر، ويفصل بينه وبين شريكته التى لم تشاركه هذا الحرص على مصلحة الأبناء، ولم ترع حرمات ربها معه ومعهم وليرع الله أبناءه ويعوّضه عن شريكته الغادرة، بمن تمسح عنه أحزانه وترعى ربها فى أبنائه، فلا تتردد فى

الاستجابة لطلبها ، ولا تبرر ضعفك معها وتشبثك بها بالحرص على عدم تشريد الأبناء، أو بأى مبررات أخرى ودعها لما اختارته لنفسها؛ ولما سوف تدفع ثمنه صاغرة ذات يوم شاءت أم أبت، فليس فى الحياة ولا فى اختيارات الإنسان شىء ليس مدفوع الثمن، إن آجلاً أو عاجلاً.

وقديمًا قال «حكيم» إنه تأمل ذات يوم نهر الدموع، فرأى دمعة تقول لصاحبتها : إننى دمعة رجل بكى حين أغوى آخر زوجته وفرت معه فأجابتها صاحبتها : لا تحزنى يا أختاه فأنا دمعة هذا الرجل الذى بكى مراراً ولا يزال يبكى بعد أن استأثر بها لنفسه وتزوجها!

وهى حكمة خيالية تنطبق على الرجل والمرأة فى كل زمان ومكان، لكننا لا نتعلم الدرس مع الأسف، إلاَّ حين يلسعنا الألم فنقول مع الشاعر الدرزى الزاهد:

تجرى الأمورُ وما لِلمَرْءِ مُعْتَبَرٌ   حتى تَحِلَّ به فى نَفْسِه العِبَرُ

فاستجمع شجاعتك وإرادتك، واحزم ضعفك وقلبك وتخلَّص منها فى هدوء، وبلا مماطلة وطمئن نفسك إلى أن معاناتك لن تضيع هباء، وإنما سوف يعوضك عنها ربك خيراً كثيراً بإذن الله.

كتب للمؤلف

1- أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
2- هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
3- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2001
4- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2001
5- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2001
6- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
7- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
8- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
9- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2001
10- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
11- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
12- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2000
13- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2000
14- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 1997

15- أهلاً.. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
16- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية 2001
17- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 1999
18- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001
19- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001

* كتب للمؤلف من إصدارات «الدار المصرية اللبنانية»

20- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الثانية 2004
21- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
22- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة 2000
23- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2000
24- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
25- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
26- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
27- اعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2000
28- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية 2000
29- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الرابعة 2004
30- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
30- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة السادسة 2003
31- وقت للسعادة وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2003
32- شركاء في الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2002
33- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الرابعة 2001

34- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الرابعة 2001
35- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2001
36- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
37- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2003
38- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2003
39- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2003
40- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2002
41- من المفكرة الزرقاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
42- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2002
43- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2003
44- هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
45- حكايات شارعنا	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2003
46- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
47- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
48- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
49- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2004
50- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
51- سائح في دنيا الله	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004

52- أرض الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
53- نافذة على الجحيم	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
54- بعد مغيب القمر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
55- فتاة من قاع المدينة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006